بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (١)

حول التفسير والمفسِّر

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

ترجمة ابن كثير:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فهذه أولاً خلاصة مختصرة عن الكتاب الذي بين أيدينا والمسمى بــ(المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير)، وفي ترجمة مؤلفه، فالكتاب هو المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، وأصل كتاب المصباح المنير هو تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير -رحمه الله- ومؤلفه مشهور معروف وإمامٌ من أئمة الدين، كانت له الإمامة في عصره في الفقه والحديث والتفسير وفي جملة العلوم.

اسمه:

هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البُصروي -نسبةً إلى بُصرى- ثم الدمشقي؛ لأنه انتقل إليها بعد ذلك في صغره.

مولده ونشأته:

ولد بمِجدل، وهي قريةٌ من أعمال بصرى، وذلك سنة إحدى وسبعمائة للهجرة، وكان أبوه خطيب قريةٍ، مات وهو في الرابعة من عمره، فرباه أخوه الشيخ عبد الوهاب، وعلمه في مبدأ أمره، ثم انتقل إلى دمشق الشام سنة ستٍ وسبعمائة في الخامسة من عمره.

شيوخه:

من أشهر شيوخه: الحافظ المزي، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، والحافظ الذهبي، وكان شديد الالتصاق بالحافظ المزي -رحمه الله-، ثم تزوج ابنته.

مؤلفاته:

مؤلفات ابن كثير كثيرة ومشهورة من أجلِّها هذا التفسير، وله كتاب كبير معروف في التاريخ، وهو المسمى بكتاب: "البداية والنهاية".

وفاته رحمه الله:

كانت وفاته -رحمه الله- بعد ما عمي بصره بدمشق سنة أربعٍ وسبعين وسبعمائة.

حول كتاب المصباح المنير:

الذين اختصروا هذا التفسير هم جمع، والذي أشرف عليه هو الشيخ صفي الدين، أو صفي الرحمن المباركفوري، وهو من مشايخ أهل الحديث من أهل الهند، وهو موجودٌ في المدينة النبوية في الجامعة الإسلامية[1]، ولديَّ منه إسناد من طريق الشوكاني بكل ما رواه الشوكاني من كتب التفسير والحديث وغيره.

أما ما يتعلق بطريقة هذا المختصر، فهي طريقةٌ وصفوها في أوله، ومشوا عليها، وطبقوها إلى حدٍ كبير، ويعرف ذلك بالمقارنة، فإذا قارنت بين هذا التفسير، وبين تفسير ابن كثير -رحمه الله- الأصل- عرفت ذلك، فهذا يمكن أن نقول بأنه من أجل مختصرات هذا التفسير ومن أحسنها ومن أنفعها، ونستطيع أن نقول بكل اطمئنان: إن من قرأ هذا الكتاب فقد قرأ ابن كثير، وإنما حذفوا منه الروايات الضعيفة، وبعض ما لا حاجة له أيضاً كالروايات الإسرائيلية -وهي قليلة أصلاً- وأما عبارة ابن كثير فقد أبقوها كما هي تقريباً.

ومن مختصراته أيضاً عمدة التفسير وهو قريب الشبه جداً بهذا المختصر، حتى إنك لا تكاد تجد فرقاً بين الكتابين من حيث الجملة، وإن وجدت بعض الفروق فهي قليلة غير مؤثرة.

وممن اختصر تفسير ابن كثير الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- وهو أهلٌ لاختصار هذا الكتاب إلا أن المصباح المنير يتميز عن مختصر أحمد شاكر بأمرين:

الأمر الأول: هو أنهم هنا جعلوا الآيات والأحاديث مضبوطةً مشكولة.

والأمر الثاني: أنهم استغنوا عن الروايات الصحيحة المكررة في المعنى الواحد، فلم يبقوا إلا الرواية التي يُحتاج إليها كأن تكون تفيد معنى جديداً.

وعلى كل حال هذا المختصر مع مختصر أحمد شاكر هما أفضل هذه المختصرات جميعاً، بل إن بعض تلك المختصرات الأخرى لا يصلح أن تقتنى إطلاقاً، وليعلم طالب العلم وغيره أن الاختصار فنٌّ وليس مجرد شطبٍ بالقلم.

منهج ابن كثير في التفسير:

إن ما يتعلق بمنهج الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في التفسير يمكن أن نذكره على سبيل الإجمال فنقول: إن تفسير الحافظ ابن كثير يعد من كتب التفسير بالمأثور من حيث الجملة، ويوجد فيه قدر صالح من التوجيه والتعليل والترجيح، وبيان المعاني مما يتعلق بالاجتهاد والنظر والرأي، ولهذا لو قال قائل: إن تفسير الحافظ ابن كثير يجمع بين الدراية والرواية، وبين التفسير بالمأثور والتفسير بالنظر والاجتهاد والرأي، لما كان ذلك بعيداً عن مطابقة الواقع، فهذا التفسير هو كذلك.

كانت التفاسير التي تذكر الروايات قديماً كتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وأمثال هذه التفاسير -وعلى طريقتها سار السيوطي في الدر المنثور- كانت تورد الروايات فقط، تسردها سرداً من غير ترجيح، ولا بيان وجه روايةٍ ولا معنى.

إلى أن جاء كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فصار يرجح ويعلل، ويبين من المعاني ما يتعلق بالتصريف واللغة وما إلى ذلك، فصار تفسيره جامعاً بين هذا وهذا.

---

1 - توفي المباركفوري -رحمه الله- في الهند يوم الجمعة العاشر من شهر ذي القعدة سنة ١٤٢٧هـ.

وجاء الحافظ ابن كثير -رحمه الله- واستفاد من هذه الطريقة، فجمع بين هذا وهذا، لكن ينبغي أن يُعلم أن كتاب التفسير لابن كثير تفسيرٌ مستقل وليس مولداً من تفسير ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وليس بتهذيب ولا مختصرٍ له، بل أنشأه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وقصد تأليفه من غير ارتباط بكتابٍ آخر يكون أصلاً له، خلافاً لما يظنه بعض الناس من أن هذا التفسير يعتبر تهذيباً، أو اختصاراً لتفسير ابن جرير، فهذا غير صحيح إطلاقاً، ولا يقول هذا من عرف الكتابين.

المقدمة:

"الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، قال الشيخ الإمام الأوحد البارع الحافظ المتقي عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن أبي الخطيب أبي حفص عمر بن كثير الشافعي -رحمه الله تعالى ورضي عنه-: "الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(١-٣) سورة الفاتحة]، وافتتح خلقه بالحمد فقال تعالى: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ} [(١) سورة الأنعام]، واختتمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٧٥) سورة الزمر]".

ليس من شأننا الاشتغال بشرح المقدمة، لكن يُعلَّق على ما يحتاج إلى تعليق، وهكذا الأمر في التفسير، لكن هنا في قوله: "**الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: {الحمد لله رب العالمين}**" هذا بناءً على القول بأن ترتيب السور أمرٌ توقيفي، وهذا القول لا شك أنه مرجوح.

وعلى كل حال إذا قلنا: إنه ليس توقيفياً فمعنى ذلك أن القرآن لم يفتتح بالحمد، ولكنه شيءٌ ارتضاه الصحابة -رضي الله عنهم-، فسورة الحمد ليست هي أول ما نزل قطعاً، بل أول ما نزل: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [(١) سورة العلق]، وليست سورة الحمد أيضاً هي أول ما افتتح به القرآن من حيث الترتيب الذي جاء من عند الله -عز وجل-، وإنما الترتيب الذي رتبه الله -تبارك وتعالى- إنما هو ترتيب الآيات في السورة الواحدة، كما قال زيد بن ثابت -رضي الله عنه-: "كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نؤلف القرآن من الرقاع"[٢]: يعني ترتيب الآيات.

وأما ترتيب السور فأحسن ما قيل فيه -والله أعلم- هو قول الإمام مالك -رحمه الله-: إن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- راعوا فيه ما رأوا من غالب حال النبي -صلى الله عليه وسلم- في قراءته.

"ولهذا قال تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [(٧٠) سورة القصص]، فله الحمد في الأولى والآخرة، أي: في جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله، كما يقول المصلي: اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد. والحمد لله الذي أرسل رسله {مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [(١٦٥) سورة

---

2 - أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب - باب: في فضل الشام واليمن (٣٩٥٤) (ج ٥ / ص ٧٣٤)، وأحمد (٢١٦٤٧) (ج ٥ / ص ١٨٤)، وابن حبان (١١٤) (ج ١ / ص ٣٢٠)، والحاكم (٢٩٠٠) (ج ٢ / ص ٢٤٩)، والطبراني في الكبير (٤٩٣٣) (ج ٥ / ص ١٥٨)، وابن أبي شيبة (١٩٤٤٨) (ج ٤ / ص ٢١٨)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٩٩).

النساء]، وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي، الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٥٨) سورة الأعراف]، وقال تعالى: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [(١٩) سورة الأنعام]، فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم وأسود وأحمر وإنس وجان، فهو نذير له، ولهذا قال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(١٧) سورة هود]، فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله تعالى، كما قال تعالى: {فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [(٤٤) سورة القلم]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت إلى الأحمر والأسود))[3]، قال مجاهد: يعني الإنس والجن.

فهو -صلوات الله وسلامه عليه- رسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، مبلغاً لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز، الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [(٤٢) سورة فصلت].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى فهمه، فقال تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [(٨٢) سورة النساء]، وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} [(٢٩) سورة ص]، وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [(٢٤) سورة محمد].

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: {وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [(١٨٧) سورة آل عمران]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٧٧) سورة آل عمران].

فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه وتفهمه وتفهيمه، قال الله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ* اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(١٦-١٧) سورة الحديد]، ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يلين القلوب بالإيمان

3 - أخرجه أحمد (١٤٣٠٣) (ج ٣ / ص ٣٠٤)، والدارمي (٢٤٦٧) (ج ٢ / ص ٢٩٥)، وابن حبان (٦٤٦٢) (ج ١٤ / ص ٣٧٥)، والطبراني في الأوسط (٧٤٣٩) (ج ٧ / ص ٢٥٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٦٤٣) (ج ٦ / ص ٣٠٣)، وإسناده صحيح كما قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج ١ / ص ٣١٧).

والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل والمسئول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم".

إن الركنين اللذين يقوم عليهما الاتعاظ بمواعظ القرآن والتأثر به هما: فهم معاني القرآن، وتجلية القلب.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}**، ثم قال بعده: **{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}**: فيه إشارةٌ إلى هذا المعنى، بمعنى أن تدبر القرآن وفهم معانيه يحصل به المقصود من التأثر والاتعاظ، وحياة القلب، وما أشبه ذلك مما هو مقصودٌ للمسلم حينما يقرأ كتاب الله -عز وجل-، فإنه يقرأ هذا القرآن من أجل العمل بما فيه، وفهم معانيه، ومن أجل أن يؤجر وأيضاً من أجل أن يتعظ بمواعظه، وللأسف نحن نقرأ من أجل البركة ومن أجل أن نؤجر.

"فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن".

هذا الكلام الذي سيذكره فيما يتعلق بطرق التفسير، وما يتصل بأصول التفسير في هذه المقدمة عامته من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في الرسالة التي تسمى: "مقدمة في أصول التفسير".

"فما أُجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر": يعني أصح طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن، فيفسر القرآن بالقرآن يعني من حيث جنس الطريقة، لا من حيث الآحاد والأفراد؛ فإن ذلك يدخله الاجتهاد، بحيث إن المفسر ربما ربط بين آيتين وليس بينهما ارتباط، ولكن وقع ذلك في ذهنه فأخطأ، ومن هنا نقول: إن تفسير القرآن بالقرآن هو أفضل طرق التفسير من حيث الجنس، ولا يعني هذا أن كل من فسر القرآن بالقرآن في المثال المعين أنه مصيب، وأن تفسيره يجب أن يوقف عنده، إطلاقاً، وإنما هنا وقع اجتهاد من المفسر، فقد يصيب وقد يخطئ، فينبغي أن نفرق في هذا.

ولهذا فإن تفسير القرآن بالقرآن منه ما هو ظاهر واضح كتفسير: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}** [(٦ - ٧) سورة الفاتحة]، مع قوله: **{فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [(٦٩) سورة النساء].

ومنه ما يكون بعيداً غاية البعد، ومنه ما يكون بين ذلك، يعني فيه احتمال ولكنه لا يقطع به، فليس تفسير القرآن بالقرآن على مرتبةٍ واحدة من حيث الأفراد والتطبيقات.

"فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال الله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا} [(١٠٥) سورة النساء]، وقال تعالى: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [(٦٤) سورة النحل]، وقال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [(٤٤) سورة النحل].

ولهذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه))[٤]، يعني السنة، والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن" وهكذا يقال في تفسير القرآن بالسنة، فهو على قسمين من هذه الحيثية، بمعنى أن من تفسير القرآن بالسنة ما يدخل فيه اجتهاد المفسر، وذلك أن يربط بين الآية وبين حديثٍ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يقصد به النبي -صلى

---

4 - أخرجه أبو داود في كتاب: السنة - باب: في لزوم السنة (٤٦٠٤) (ج ٢ / ص ٦١٠)، بلفظ: ((الكتاب)) بدل: ((القرآن))، وأحمد (١٧٢١٣) (ج ٤ / ص ١٣٠)، واللفظ له، وصححه الألباني في المشكاة برقم (١٦٣).

الله عليه وسلم- تفسير الآية، ولم يذكرها أصلاً، فمثل هذا قد يخطئ فيه المفسر وقد يصيب، وهو أيضاً على هذه المراتب الثلاثة التي ذكرتها.

ومن هذا النوع: ما يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- تعرض للآية، إما ذكرها، وإما أنه سئل عنها، وإما أن أصحابه اختلفوا فيها، فبين لهم المعنى، أو غير ذلك، فهذا إذا صح إسناده فإنه لا يطلب غيره ولا يجوز تعديه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أعلم الناس بكتاب الله -عز وجل- كما قال تعالى: **{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}** [(٣ - ٤) سورة النجم].

"والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهم-.

روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن عبد الله -يعني ابن مسعود- قال: "والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته"[٥].

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عمِّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وترجمان القرآن؛ ببركة دعاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- له، حيث قال: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))[٦].

وروى ابن جرير عن عبد الله -يعني ابن مسعود- قال: "نِعم ترجمان القرآن ابن عباس" وهذا إسناده صحيح.

وقد مات ابن مسعود -رضي الله عنه- في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمِّر بعده عبد الله بن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود.

وقال الأعمش عن أبي وائل: "استخلف عليٌّ عبدَ الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة -وفي رواية: سورة النور- ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا."

على كل حال تفاسير الصحابة لا نقول: إنها حجة بإطلاق، ولا نقول: إنها ليست بحجة هكذا بإطلاق، وإنما يقال: تفاسير الصحابة على أنواع، فهذه التفاسير المنقولة عن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- إذا صح إسنادها تارةً تكون حجة، وذلك في أحوالٍ متعددة، منها: إذا أجمع الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- على أمرٍ فإن هذا الإجماع لا يجوز الخروج عنه أو مخالفته.

ومنها: إذا كان تفسير هذا الصحابي مما لا يتصل بالرأي، ولا يتعلق بالاجتهاد، ولا مدخل لذلك فيه بحالٍ من الأحوال، ولم يعرف بالأخذ عن بني إسرائيل، فمثل هذا يكون حجة، وذلك مثل الكلام في أسباب النزول؛ فإنها لا تقال من جهة الرأي، كذلك الإخبار عن الأمور الغيبية، فهذا يكون له حكم الرفع، وكذلك فيما إذا قال قولاً ولم يُعلم له مخالف من الصحابة فإنه في هذه الحالة لا تجوز مخالفته.

---

5 - أخرجه الطبراني في الكبير (٨٤٢٩) (ج ٩ / ص ٧٣)، والبزار في المسند (١٩٦٩) (ج ٥ / ص ٣٤٣)

6 - أخرجه أحمد (٢٣٩٧) (ج ١ / ص ٢٦٦)، وابن حبان (٧٠٥٥) (ج ١٥ / ص ٥٣١)، والطبراني في الكبير (١٠٦١٤) (ج ١٠ / ص ٢٦٣)، وفي الأوسط (١٤٢٢) (ج ٢ / ص ١١٢)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٢٣) (ج ٦ / ص ٣٨٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٥٨٩).

هذه ثلاث حالات يوقف فيها عند تفسير الصحابي ولا يخالف، سواء كان مستنده في ذلك اللغة، أو ما فهمه من بعض الأدلة فإنه لا يتعدى.

الحالة الأخرى: وهي أن يختلف الصحابة -رضي الله عنهم- في تفسير الآية، فبهذه الحال لا يكون قول الواحد منهم حجة على الآخر، ففي هذه الحالة نتخير من أقوالهم ما يُعتقد رجحانه، يعني يرجح بينها بالأدلة.

إذن: إذا سئلت هل تفسير الصحابي حجة أو غير حجة؟ فلا تقل: حجة مطلقاً، ولا تقل: غير حجة، وإنما فيه التفصيل المذكور.

"ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين، ابن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب" طبعاً للأسف إن عامة المرويات عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- لا تصح، لا يصح من هذا الكم الهائل المنتشر في كتب التفسير الذي لا تكاد تفتح صفحة من كتب التفسير بالمأثور إلا وتجد فيها مرويات عن ابن عباس لا يصح منه إلا القليل جداً.

فعلى كل حال الإمام أحمد -رحمه الله- قال: إن ثلاثة كتب لا أصل لها، وذكر منها التفسير، وبغض النظر عن توجيه هذه الكلمة له -رحمه الله- لكن لا شك أن الرواية في التفسير دخلها الكثير، ولم يُعتنَ بها العناية التي حظي بها الحديث، ولذلك إذا أردت أن تطبق شروط المحدثين على جميع المرويات التي في التفسير فإنك في النهاية لن تخرج إلا بالقليل بالنسبة لهذا الكمّ الموجود من الروايات الكثيرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة وعن التابعين.

"ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حيث قال: ((بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))[٧]، رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو، ولهذا كان عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك، ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد؛ فإنها على ثلاثة أقسام" نعم، تذكر للاستئناس بها فقط لا للاعتضاد، بمعنى أنه لا يعتمد عليها، ولا يفسر بها القرآن، فنحن لا نفسر القرآن بالأحاديث الضعيفة، فكيف نفسره بهذه الروايات التي لا يعرف لها إسناد أصلاً، ولا يمكن الوقوف على صحتها؟ إلا ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- فحسب، وأما هذه التي في كتبهم، والتي تنقل عنهم عن كعب الأحبار، أو غيره، فإن هذه لا يمكن أن يعرف أنها صحيحة أو غير صحيحة بمجرد روايتها عنهم، ولكن ما وافق ما عندنا في الكتاب والسنة فإنه يعلم صحته بهذا الاعتبار فقط، أما من جهة الأسانيد، ودراسة الروايات فليس عندهم هذه الأسانيد أصلاً، وبالتالي فإنه على كل الأحوال هذه الروايات الإسرائيلية لا يفسر بها القرآن، والصحابة -رضي الله عنهم- حينما أوردوها لم يكن ذلك اعتماداً لها في بيان معاني كلام الله -عز وجل-، وإنما من باب الاستئناس فيما لا يخالف ما في الكتاب والسنة.

7 - أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء - باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٤) (ج ٣ / ص ١٢٧٥).

ولم أر أحداً تكلم على هذه المسألة مثل الشيخ أحمد شاكر –رحمه الله– في مقدمته في اختصاره لهذا التفسير في كتابه (عمدة التفسير)، فهو تكلم على هذه الروايات الإسرائيلية من هذه الحيثية بأنه لا يجوز الاحتجاج بها، وأنه لا يجوز أن يفسر بها القرآن.

ولا شك أن الأكمل والأفضل أنها لا تورد في التفسير أصلاً، ولذلك فإن من مميزات التفسير التي تذكر عادةً، بل إن ذلك ما عمِد إليه كثيرٌ من المفسرين وذكروه في أول كتبهم أنهم أرادوا أن يجردوه من الروايات الإسرائيلية، ولكن عامة من ذكر ذلك لم يستطع التخلص من إيراد شيءٍ منها، لكنهم بين مقلٍ ومكثر، فمنهم من أورد كثيراً من هذه الروايات، ومنهم من أورد قليلاً منها.

وابن كثير –رحمه الله– وقع في هذا في تفسيره، حيث له بعض الروايات القليلة، ولكنه عالمٌ نقاد ينتقد، وقد بين حال الروايات الإسرائيلية في أكثر من موضع من هذا التفسير، فهو تكلم عليها وأنه لا يحتج بها، وردَّ على هؤلاء الذين يكذبون ويفترون على الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام–.

"**أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق**" هذا حكم الروايات الإسرائيلية وهو أن الروايات الإسرائيلية لا تخلو من ثلاثة أحوال:

إما أن توافق ما عندنا فتقبل، وإما أن تخالف ما عندنا –أي: تناقضه– فترد؛ لأنها كذب، وإما أنها لم يرد في الكتاب والسنة ما يوافقها ولا ما يخالفها فنتوقف فيها، لا نصدقها ولا نكذبها، وهذا الكلام ذكره الحافظ ابن حجر، وشيخ الإسلام ابن تيمية، فهو معروف عند العلماء بطريق الاستقراء

"**أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح، والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه، والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، ويجوز حكايته؛ لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعددهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم**" هذه تفصيلات تركها الله –عز وجل–؛ لأنه لا فائدة في ذكرها، إنما القضية تتعلق بالمعنى، كإحياء الموتى، وأن الله نجَّى أهل الإيمان بالسفينة مع نوح –صلى الله عليه وسلم–...الخ، ويبقى الجدل ما عدد أدوار هذه السفينة؟ وما نوع الخشب الذي صنعت منه؟ وأين السفينة الآن؟ وماذا بقي منها؟ ومن أول من ركب؟ ومن آخر من ركب؟ وكيف كانوا في أدوار هذه السفينة؟ وتفاصيل أخرى ليس لها حاجة ولا فائدة.

"**وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم.**

فصــــل:

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كـــل آية منه وأسأله عنها".

وروى ابن جرير عن ابن أبي مليكة قال: "رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب حتى سأله عن التفسير كله"، ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية، فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً، فيحكيها أقوالاً وليس كذلك؛ فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء، بعينه والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي". يعني هذا فيه إشارة إلى الاختلاف الواقع في عبارات المفسرين من التابعين، وهذا الاختلاف الواقع عامته هو من اختلاف التنوع، وذلك أن هذا الاختلاف إنما هو اختلافٌ صوري وليس باختلاف حقيقي، فهو اختلاف في العبارة واللفظ، فتارةً هذا يفسر بالمثال وهذا يفسر باللازم، وهذا يفسر بعبارةٍ قريبة من عبارة الآخر، وما إلى ذلك مما هو معروف، فتقع الاختلافات في العبارات، لكن المعنى والمآل واحد، ومثل هذا لا يصح أن يعد من الخلاف فيقال: القول الأول والثاني والثالث والرابع..، ثم نحاول أن نجمع بين هذه الأقوال.

وأما الاختلاف الحقيقي -الذي يسمى اختلاف التضاد- فهو قليل فيما نقل من تفسير الصحابة -رضي الله عنهم- مقارنةً بتفسير التابعين، والواقع في تفسير التابعين من الاختلاف الحقيقي قليل بالنسبة إلى من جاء بعدهم؛ وذلك أن الناس كلما بعُد العهد كلما ازدادت العجمة، واحتاج الناس إلى بيانٍ وتفصيل، وكلما ازداد التكلف عندهم أيضاً، فصاروا ينقِّرون عن أمورٍ لم يكن من سبقهم ينقِّر عنها، وكذلك أيضاً تقع من المستجدات والحوادث وما إلى ذلك مما يحتاجون معه إلى استنباط معاني ذلك وأحكامه من القرآن، فيقع بينهم الاختلاف بطبيعة الحال، وهذا أمرٌ لا بد منه، والله المستعان.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام؛ لما رواه محمد بن جرير -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس".

هو الآن تكلم عن التفسير بالمأثور، تفسير القرآن بالقرآن، وبأقوال الصحابة، وبأقوال التابعين، وبين أحكام ذلك، وهذا هو الذي يسمى التفسير بالمأثور، فكل ذلك هو من قبيل التفسير بالمأثور؛ لأنه مما يؤثر أن ينقل، وليس معنى ذلك أنه حجة، فليس هناك ملازمة إطلاقاً بين الحجية وبين التفسير بالمأثور، وبالتالي لسنا بحاجة إلى أن نشتط فنقول: إن التفسير بالمأثور هو ما نقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو عن الصحابة مما يكون حجةً، فالتعريف بهذه الطريقة غير صحيح، وإنما التفسير بالمأثور هو كل ما يمكن أن يؤثر، فيدخل في ذلك أقوال الصحابة والتابعين.

ولو قلت: التفسير بالمنقول -بعيداً عن الاصطلاح لكلمة المأثور- فيمكن أن تُدخِل في التفسير بالنقل التفسيرَ بالقرآن وبأقوال الصحابة وبأقوال التابعين وبالإسرائيليات -مع أن هذا غير مرضي أصلاً- وبالسنة، وباللغة، فأنت حينما تنقل عن فلان من أئمة اللغة فهذا تفسيرٌ بالمنقول، لكنه لم يصطلح الناس على تسميته تفسيرًا بالمأثور، وأقصد بهذا الكلام أن نجعل القضية ثنائية تفسير بالمنقول يدخل فيه هذا كله بحيث إن المفسر لا يكون له كد ولا جهد ولا اجتهاد في مثل هذا، وإنما هو يعزو فقط.

القسم الثاني الذي يقابله: هو التفسير بالاجتهاد، وهو الذي يسمونه التفسير بالرأي، فمثل هذا التفسير بالرأي، قال عنه: "**وأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام**"، فقوله: "**بمجرد الرأي**" يقصد الرأي المجرد الذي لم يستند على أصل، فهذا هو المقصود، لا أن التفسير بالرأي حرام.

ولذلك تجد ابن جرير الطبري -رحمه الله- في مقدمته لتفسيره ذكر الآثار التي تدل على النهي عن تفسير القرآن والقول فيه بالرأي والتشديد في ذلك، ثم بعد ذلك ذكر جملةً من الآثار الدالة على تسويغ ذلك، يعني في الوقت الذي يتحرج فيه من تحرج، أو يرِد النهي فيه عن جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- أو ورد فيه بعض الآثار المرفوعة تجد في هذا الوقت نفسه ما يدل على تسويغ ذلك أيضاً، فيحمل النهي والتشديد والامتناع الذي حصل من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- على لونٍ من التفسير بالرأي هو ما كان بالرأي المجرد من غير أن يستند إلى ما يجب أن يستند إليه التفسير من معرفة القرآن والسنة وأقوال السلف، ومواضع الإجماع، وقواعد الفن، وما أشبه هذا.

ويحمل توقف بعض الصحابة عن ذلك أيضاً على أنه كان من باب التورع، وإلا فيوجد في المقابل ما يدل على أن ذلك يسوغ إذا كان ذلك مما يبنى على خلفية علمية، وأصلٍ صحيح وما أشبه ذلك.

فمثلاً: إذا أردنا أن نفسر آية من الآيات، كقوله تعالى: **{الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** [(١-٣) سورة البقرة].

{الم}: هذه الحروف المقطعة هي من حروف المباني التي تبنى منها الألفاظ والكلمات، ليس لها معنى في أصلها، وإنما تشير إلى معنى وهو التحدي بهذا القرآن والإعجاز.

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}: **{ذَلِكَ}**: قد تستعمل للبعيد، ويدل على شرف القرآن ورفعته ومنزلته العالية.

{الْكِتَابُ}: أصله المكتوب، وأصل الكلمة من الضم والجمع، والمقصود به هذا القرآن وهو أحد أسمائه المشهورة.

{لاَ رَيْبَ فِيهِ}: نفى عنه الريب، وهذا يدل على اشتماله على اليقين الكامل..الخ..

هذا تفسير بالرأي، فهل هذا حرام؟ هل هذا الذي سمعتموه الآن يعتبر تفسيراً باطلاً؟

لا ليس باطلاً، بل هذا الكلام صحيح لا إشكال فيه، وليس هذا هو المعنيّ بالذم، لكن من قال في القرآن برأيه بمعنى أنه يتخرص ويتقول على الله -عز وجل-، ولا يبني ذلك التفسير على أصلٍ صحيح فهذا هو التفسير بالرأي الذي يُذم صاحبه ويُذم تفسيره، ويقال عمّن يفسر بهذه الطريقة: أخطأ وإن أصاب، بمعنى أن وقوعه على الصواب إنما كان ذلك مصادفةً، ولم يكن ذلك من باب أنه أتاه من وجهٍ صحيح، فهو ما بناه على مقدمات وأصول صحيحة، وإنما وقع على الصواب مصادفة، فهذا لا يجوز لا في التفسير ولا في غيره من الكلام في الأحكام، وبهذا نعرف المراد حينما يذم التفسير بالرأي ويشدد فيه، وإلا فإن تفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- هو لا شك أنه من التفسير بالرأي.

"فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام؛ لما روى محمد بن جرير -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار))[٨]، وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى ابن جرير عن أبي معمر قال: قال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-: "أي أرضٍ تقلني، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم!"[٩].

وروى أيضاً أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [(٣١) سورة عبس]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: "إن هذا لهو التكلف يا عمر"[١٠].

وهذا محمول على أنه -رضي الله عنه- إنما أراد استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، كقوله تعالى: {فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا} [(٢٧- ٢٨) سورة عبس]، الآية".

يقصد أن معرفة نوع هذا النبات بالتحديد هو التكلف، يعني يكفي أن يعرف أن هذه نباتات امتن الله -عز وجل- بإخراجها لهم مما يأكلون منه ومن ثمره، وكذلك تأكل منه دوابهم وأنعامهم، فيكفي أن يعرف هذا القدر، أما الاشتغال بتحديده بعينه فهذا الذي قصده -رضي الله عنه- بأنه من قبيل التكلف؛ لأن الله لم يكلفنا ذلك.

"وروى ابن جرير عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها [إسناده صحيح][١١].

وروى أيضاً عن ابن أبي مليكة قال: سأل رجل ابن عباس عن {يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ}؟ [(٥) سورة السجدة]، فقال له ابن عباس: فما {يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}؟ [(٤) سورة المعارج]، فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: "هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما"، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم"[١٢] ترك الجواب تورعاً، وإلا فإن ابن عباس -رضي الله عنه- يوجد عنه من الروايات الصحيحة ما جمع فيه بين مثل هذه الآيات التي ربما يفهم منها من لا يعرف وجه ذلك التعارض، فابن عباس تكلم في مثل هذه الأشياء وبيّنها، لكنهم قد يتركون الكلام من باب التورع.

"وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن[١٣]، وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين: سألت عبيدة -يعني السلماني- عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيمَ أنزل القرآن، فاتق الله وعليك بالسداد[١٤].

---

8 - أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير - باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (٢٩٥١) (ج ٥ / ص ١٩٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (١١٤).

9 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠١٠٣) (ج ٦ / ص ١٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٧٨) (ج ٢ / ص ٤٢٤)،

10 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠١٠٥) (ج ٦ / ص ١٣٦).

11 - تفسير الطبري (ج ١ / ص ٦٢).

12 - أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٨٨٠) (ج ٤ / ص ٦٥٢).

13 - تفسير الطبري (ج ١ / ص ٦٢).

وروى الشعبي عن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن الصحابة وأئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالى: {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} [(١٨٧) سورة آل عمران]، ولما جاء في الحديث الذي روي من طرق: ((من سئل عن علمٍ فكتمه ألجم يوم القيامة بلجامٍ من نار))"[١٥] ومما يدل على أنهم تكلموا كثيراً بما فهموا هذه الروايات المنقولة عنهم، وكذلك ما وقع بينهم من الاختلاف -اختلاف التضاد- فلو كان ذلك جميعاً مما أخذوه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما وقع بينهم مثل هذا الاختلاف.

فعلى كل حال من نظر في الروايات المنقولة عن الصحابة -رضي الله عنهم- وعن التابعين، وجد في ذلك الكثير مما يقطع بأنهم قالوه باجتهادهم، ومنه ما رجعوا فيه إلى لغة العرب كما يظهر ذلك في أمثلةٍ واضحة، ومن أراد أن يقف على طرفٍ من آثار السلف -رضي الله عنهم- التي تدل على تورعهم من التفسير وتحرجهم من الكلام على الله -عز وجل- بغير علم فلينظر في مثل: مقدمة الدارمي، وكذلك في كتاب: جامع بيان العلم، للحافظ ابن عبد البر، وجمع شيئاً من ذلك الشاطبي في كتابه: الموافقات، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين...

---

14 - تفسير الطبري (ج ١ / ص ٦٢)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣٠٠٩٩) (ج ٦ / ص ١٣٥).

15 - أخرجه أبو داود في كتاب: العلم - باب: كراهية منع العلم (٣٦٥٨) (ج ٢ / ص ٣٤٥)، والترمذي في كتاب: العلم - باب: ما جاء في كتمان العلم (٢٦٤٩) (ج ٥ / ص ٢٩)، وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب: من سئل عن علم فكتمه (٢٦٤) (ج ١ / ص ٩٧)، وأحمد (٧٥٦١) (ج ٢ / ص ٢٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٧١٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٢)

متابعة المقدمة بين يدي السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد.

أقسام التفسير:

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "**قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه أحدٌ إلا الله**" هذا الأثر المشهور عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يتحدث عن أنواع التفسير من جهة معرفة الناس له، وهكذا ينبغي أن يحمل هذا الأثر وأن يفسر، فهو يدل على هذا المعنى؛ وذلك أن الناس في فهمهم لكلام الله -عز وجل- منه ما يعرفونه بلغتهم -أي: تعرفه العرب بكلامها-، وهذا كالذي سأل عنه عمر -رضي الله تعالى عنه-: ما الأبُّ؟ فهذا يعرف من لغة العرب، ولما سأل عن التخوف في قوله تعالى: **{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}** [(٤٧) سورة النحل]، فأجيب بجواب مأخوذٍ من كلام العرب، واستشهد له على ذلك ببيت:

تَخَوَّفَ السيرُ منها تامكاً قَرِداً ... كما تَخوّف عُودَ النَّبْعةِ السَّفَنُ

فهذا كله يرجع فيه إلى لغة العرب ويعرف منها، كالألفاظ الغريبة وما شابه ذلك.

وطائفة من كلام الله لا يعذر أحد بجهله فهو يعرفه كل أحد، وليس المقصود بأنه لا يعذر أحد بجهله بمعنى ما يتعلق بالفرائض، بل هو يتحدث عن إمكانية الوصول إليه، وطريق الوصول إليه، فهذا يعرف من جهة اللغة، وهذا لا يعذر أحد بجهله لمعرفه كل أحد به، وهذا في الأشياء الواضحة جداً التي لا تخفى، فهي تُعرف بمجرد سماعها.

والقسم الثالث: ما يعرفه العلماء، وهذا الذي يحتاج إلى استنباط، ويحتاج إلى دقة نظر، وذلك مثل الآيات التي ظاهرها التعارض، وذلك مثل قوله -تبارك وتعالى-: **{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ}** [(٢٤) سورة الصافات]، مع قوله: **{فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ}** [(٣٩) سورة الرحمن].

وكذلك في مثل قوله تعالى: **{هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ}** [(٣٥) سورة المرسلات]، وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}** [(١٠٨) سورة طـه]، مع قوله عن الكفار أنهم يقولون: **{وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}** [(٢٣) سورة الأنعام]، وأشباه ذلك كثير مما يحتاج إلى استنباط ويحتاج إلى جمع بين الآيات، ويحتاج إلى دقة نظر، فهذا لا يعرفه عامة الناس وإنما يعرفه العلماء.

والقسم الرابع: هو ما لا يعلمه إلا الله -عز وجل-، وذلك في الأمور التي لا يمكن أن يوقف عليها، وهو ما يسمونه بالمتشابه المطلق، أما الذي يشكل على بعض ويعرفه آخرون فهو من قبيل المتشابه النسبي، وذلك من جهة المعنى، وأما ما يتعلق بالأمور الغيبية كحقائق الصفات، وحقائق ما أخبر الله -عز وجل- عنه من نعيم الجنة، أو عذاب النار، وما أشبه ذلك، فقد وصفه -عز وجل- لنا، أو وصف لنا بعضه، فنحن نفهم معاني ما وصف لنا، ولكن حقائق هذه الأشياء لا ندركها، مثل: كيف يدُ الله -عز وجل-؟ وكيف سمعه؟ وكيف بصره؟ كذلك حينما يذكر نعيم الجنة كأن يذكر مثلاً أن فيها أنهاراً من ماء، وفيها أنهاراً من لبن، وأنهاراً من خمر إلى آخره، فما هي مركبات هذا اللبن ونحوه؟ فنحن لا ندري ما هي مركباته.

وكذلك أيضاً حينما يخبرنا -جل وعلا- عن الماء الذي في الجنة كما في قوله تعالى: **{عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا}** [(١٨) سورة الإنسان]، ما هي مركبات هذه المياه؟ هل تتركب مما تتركب منه مياه الدنيا؟

لا ندري؛ لأن هذه أمور غيبية لا ندركها، وهكذا في بقية الأمور الغيبية الأخرى..

فما لا يمكن الوقوف عليه من حقائق الغيب فهذا يقال له: المتشابه المطلق، وليس ذلك من جهة المعنى وإنما من جهة الكُنه والكيفية، ولهذا إذا سئلنا: هل يوجد في القرآن شيء لا يعرف معناه أحد من الأمة؟

نقول: لا؛ إذ ليس في القرآن متشابه مطلق من جهة المعنى؛ فالله خاطبنا بما نفهم، وبما نعرف، ولم يخاطبنا بأمورٍ هي من قبيل الألغاز.

وأما من جهة الكنه والكيفية فإن القرآن يوجد فيه متشابه مطلق، وهذان المعنيان يفسر به قوله -تبارك وتعالى- في آية سورة آل عمران: **{مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ}** [(٧) سورة آل عمران].

فعلى الوصل والوقف في الآية يتغير المعنى، فإذا وصلت: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}**، فهذا بمعنى المتشابه من جهة المعنى الذي يشكل على البعض ويعرفه آخرون.

وإذا وقفت وقلت: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** ثم قرأت: **{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}**، فعلى هذه القراءة يكون المقصود به المتشابه المطلق -يعني من جهة الكنه والكيفية والحقيقة- وكلاهما -الوقف والوصل- ثابت عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

المكي والمدني من سور القرآن:

"**روى همام عن قتادة قال: "نزل في المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة**" يعني مثل هذه الروايات حينما يرويها قتادة -وقتادة من التابعين- فهو يتحدث عن قضايا تتعلق بزمن الوحي، فمثل هذه الروايات لا تعتبر ثابتة صحيحة في منهج المحدثين، وإنما هي من قبيل المرسل وهذا إذا قلنا: إن هذا مما لا يقال من جهة الرأي، وهو يتحدث عن نزول القرآن وأماكن النزول، مع أن كثيراً من العلماء يتكلمون في هذا من جهة النظر والرأي باعتبار المعاني التي تلوح لهم في بعض الآيات فيها.

فعلى كل حال هذا على أحد الأقاويل في المكي والمدني، ويوجد غير ما ذكر، بل إن بعضهم عدَّ من المختلف فيه هل هو مكي أو مدني –من السور وليس من الآيات– اثنتين وثلاثين سورة من المختلف فيه، فمثل هذا حينما تسرد في مثل هذه السور على أن هذه مكية وهذه مدنية فليس ذلك بقاطع، وهذا هو المقصود.

"نزل في المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويا أيها النبي لم تحرم، إلى رأس العشر، وإذا زلزلت وإذا جاءنصرالله، هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر السور بمكة.

عدد سور القرآن وآياته:

فأما عدد آيات القرآن العظيم فست آلاف آية" هنا لم يتعرض لعدد السور، بل تكلم فيما بعد عن معنى السورة واشتقاقها، ولم يتحدث عن عدد السور؛ ربما بناء على أن المعروف والمشهور أن سور القرآن أربع عشرة ومائة سورة، فبعضهم ينقل عليه الإجماع فيقول: هذا بالإجماع لا خلاف فيه، لكن لو قيل: إن هذا هو القول المعروف المشهور المستقر عند العلماء لكانت هذه العبارة أدقَّ؛ وإلا فإن من أهل العلم من قال: إن سور القرآن أكثر من ذلك، ومنهم من قال: إنها أقل؛ وذلك بناءً على أن بعضهم عدَّ سورتين منسوختين في اللفظ وهما سورتا الخلع والحفد –وهما مما يقال في القنوت– فإذا أضفت هاتين السورتين صار العدد ست عشرة ومائة سورة، قالوا: وهما في مصحف أبي بن كعب –رضي الله تعالى عنه– يعني نسخ لفظهما، لكن كأنه أبقاهما في آخره على أنهما من الدعاء الذي يقال في القنوت.

فهما سورتان قصيرتان قد نسخ لفظهما ولكن المعنى لم ينسخ، فسورة الخلع هي: "اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك".

وسورة الحفد هي: "اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك"، وفي بعض الروايات: "ونخشى نقمتك، إن عذابك بالكافرين ملحق".

فإذا كان هذا مما نسخ من القرآن، فهل ما نسخ من القرآن يعد منه؟

بالإجماع أنه لا يُعد، وعلى هذا فمثل هذا القول: إن سور القرآن ست عشرة ومائة لا يلتفت إليه.

أما أبي –رضي الله عنه– إن كانت في مصحفه فهو لم يعدها أصلاً، إلا إن كان لم يبلغه النسخ، وإلا فما مغزى كونها موجودة في آخر المصحف ومكتوبة؟ فنقول: كتبها للدعاء، لا على أنها سورة، وما قال بأنها سورة؛ إذ لم ينقل عنه إطلاقاً أنه يقول :إن سور القرآن ست عشرة ومائة سورة.

وبعضهم يقول: عدد سور القرآن اثنتاعشرة ومائة سورة، والسبب في ذلك كما قالوا؛ لأن سورتي المعوذتين غير موجودتين في مصحف ابن مسعود، وهذا مشهور، ولكن ابن مسعود –رضي الله عنه– لم يكن يخفى عليه أنهما من القرآن ولكن لم يكتبهما؛ لأنهما محفوظتان لا تخفيان فهو لم يكتبهما في مصحفه وذلك أن مصاحفهم –رضي الله عنهم– كانت مصاحف شخصية، كل إنسان يكتب لنفسه مصحفاً.

وبعضهم يقول: ظن أنها تعويذة ورقية.

ولكن على كل الأحوال هما قطعاً من القرآن بلا شك، فمن زعم بأن سور القرآن مائة واثنتا عشرة سورة فهو قولٌ شاذ بناءً على ما ذكرنا.

ومنهم من يقول: هو خمس عشرة ومائة سورة، وهذا القول بناءً على أنه عدَّ سورتين من القرآن سورةً واحدة، مثل سورة الفيل وإيلاف قريش، قالوا: هذه سورة واحدة أصلاً، ومنهم من عد سورة الشرح مع سورة الضحى، وقال: هذه سورة واحدة، ومنهم من عد غير ذلك سورة واحدة بالطريقة نفسها، وهذه أقوال شاذَّة أيضاً.

لكن كل هذه الأقوال شاذة لا يلتفت إليها، وإنما ذكرت هذا ونبهت عليه؛ لأنه قد يعرض لأحد في بعض كتب التفسير، أو كتب متعلقة بالتفسير أو كتب خادمة له، فيشكل عليه مثل هذا ويلتبس عليه.

فالمستقر الثابت الذي وقع عليه ما يشبه الإجماع هو أن سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة..

"فأما عدد آيات القرآن العظيم فست آلاف آية، ثم اختُلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة آية، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية أو ست وعشرون آية، وقيل: ومائتان وست وثلاثون، حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه "البيان" على كل حال أبو عمرو الداني -رحمه الله- إمام كبير من أئمة القراءة، وله مصنفات كثيرة جداً ربما تصل إلى أربعين مصنفاً في شتى الفنون والعلوم المتعلقة بالقرآن، وله مصنفات في غير ذلك أيضاً، فهو من كبار أئمة القراءة، وكتابه معروف مشهور، وعهدي به مخطوط في الجامعة الإسلامية لم يخرج للطبع، وعلى كل حال اسم كتابه: [البيان].

يقول:" **حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه [البيان]**" [اسمه البيان في عد آي القرآن]، والكتب المؤلفة نظماً ونثراً في عدِّ الآيات كثيرة جداً، والأقاويل في عدد آيات القرآن أكثر مما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- وهي أكثر من هذا، والخلاف في هذا كثير جداً.

والعلماء حينما يختلفون في عدد الآيات فليس معنى ذلك أن أحداً منهم يسقط آيةً من كتاب الله وآخر يزيد آية، وقل مثل ذلك حينما نتحدث عن خلافهم في عدد الكلمات، وعن خلافهم في عدد الحروف، فهم متفقون على هذا المصحف الذي بين أيدينا، ولكن كيف وقع بينهم الاختلاف في العدد؟

هناك جواب مجمل، وهو أن العلماء من القراء -أئمة القراءة في المدينة ومكة والشام، والكوفة، والبصرة رحمهم الله جميعاً- لهم طريقة في العدِّ، فأهل الشام لهم طريقة في العدِّ، وأهل البصرة لهم طريقة، وأهل الكوفة لهم طريقة، وقد وقع بينهم هذا التفاوت ويمكن أن يرجع ذلك إلى القراءة، ومعلوم أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وأقرب مثالٍ يوضح هذا المعنى: أن البسملة على بعض القراءات آية من سورة الفاتحة، وعلى بعضها ليست بآية، وفي بعض الوجوه من القراءات أنها آية من كل سورة عدا سورة براءة، فإذا عددت البسملة على بعض الأوجه من القراءات آية من كل سورة عدا براءة، صار عندنا آيات زيادة عددها ثلاث عشرة ومائة، ومن لم يعدها اختلف عنده العدد، وليس ذلك من جهة الرأي إطلاقاً.

ووجه الجمع بين هذه الأقاويل هو ما ذكره صاحب المراقي بقوله:

وبعـــضهم إلـــى القـــراءة نظـــر وذاك للوفـــــاق رأيٌ معتبـــــــر

من قرأ بقراءة كقراءة ابن كثير –وهي قراءة أهل مكة، وهي التي كان يقرأ عليها الإمام الشافعي –رحمه الله– فإنه يعد البسملة آية من الفاتحة، وهكذا.

فعلى كل حال هذا مثال بسيط يوضح وجه ذلك، وهناك أشياء أخرى يمكن أن تذكر في هذا المجال.

الخلاف في عدد آيات القرآن:

سور القرآن من حيث عدد الآيات يمكن أن تجعل على ثلاثة أقسام:

قسم اتفق العلماء على عدده جملةً وتفصيلاً، وهذه يمكن أن يقال: إنها تبلغ أربعين سورةً.

ومنه ما حصل الاتفاق على عدده جملةً لا تفصيلاً، بمعنى أنهم متفقون على أن عدد آيات هذه السورة مثلاً: عشرون آية لكنهم مختلفون في رأس الآية، هل هي هذه أو تلك؟ وذلك حصل في نحو أربع سور.

ومنه ما اختلفوا فيه جملةً وتفصيلاً، وهذا هو الأكثر، وذلك في سبعين سورة، والمعنى أن هذا يقول: عدد الآيات مثلاً: عشر، وهذا يقول: بل إحدى عشرة آية، فضلاً عن الخلاف فيما يقال له: الفاصلة أو المقطع، أو أين تنتهي الآية، وأقرب مثال لذلك سورة الفاتحة، فإنهم مختلفون فيها، فبعض العلماء –كما هو المشهور– يقول: هي سبع آيات بالإجماع، لكن هذا الكلام فيه نظر؛ لأننا إذا قلنا: إنها سبع آيات مثلاً –وهو ما عليه عامة أهل العلم وهذا هو المشهور– فالسؤال هو: أين السابعة؟ هل هي البسملة، أو أن ذلك عند قوله –تبارك وتعالى–: **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}**؟

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}: هنا رأس آية، ثم **{غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}**: هذه آية أخرى، هذا عند من قال: إن الفاتحة ليست البسملة آيةً منها وهي سبع آيات، نقول: فأين السابعة، يقولون: **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}** هذا رأس آية، وبعضهم قال: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**: هذا رأس آية، فعلى هذا لم ينقص شيء ولم يزد شيء، ومن هنا نعرف كيف يقع التفاوت في العدد، فالقرآن هو القرآن الذي بين الدفتين، لا يدعي أحد فيه زيادة حرف ولا نقصان حرف، لكن لا بد من فهم وجه مثل هذه الاختلافات، وسيأتي أيضاً مثل هذا الكلام في عدد الحروف وفي عدد الكلمات.

فعندنا الآن الاختلاف في البسملة، وعندنا الاختلاف في أوائل بعض السور مثل الحروف المقطعة فيها خلاف مشهور هل تعد آية أم لست بآية؟ فبهذا يفترق العدد، وكذلك في مثل بعض أوائل السور كقوله تعالى: **{وَالْعَصْرِ}** [(١) سورة العصر]، ومثل: **{وَالضُّحَى}** [(١) سورة الضحى]، ومثل: **{وَالنَّجْمِ}** [(١) سورة النجم]، وما أشبه ذلك، وكذلك مثلاً حينما يقول الله –عز وجل– في أول سورة القصص: **{طسم}** [(١) سورة القصص]، هذه اختلفوا فيها هل هي آية مستقلة أو أنها ليست بآية مستقلة؟.

وفي السورة نفسها –سورة القصص–: **{وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ}** [(٢٣) سورة القصص]، **{يَسْقُونَ}** هل هذه رأس آية؟ بعضهم يقول: نعم، هنا موضع الفاصلة.

وكذلك في سورة العنكبوت، اختلفوا في **{الم}**، وكذلك في قوله: **{مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}** [(٦٥) سورة العنكبوت]، هل هي رأس آية؟ وكذلك في قوله سبحانه: **{وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}** [(٢٩) سورة العنكبوت]، هل هي رأس آية؟

وفي قوله تعالى في سورة الجن: {لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ} [(٢٢) سورة الجن]، هل هذه رأس آية؟، وفي سورة العصر أيضاً: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} [(٣) سورة العصر]، هل هذه رأس آية، أم أنها آية واحدة هكذا: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [(٣) سورة العصر]؟، وهكذا فيما ذكرت من سورة الفاتحة.

إذا اعتبرت هذا كله تبين لك وجه هذا الاختلاف في العدد.. لكن هل هذا أمر يؤثر؟ الجواب: هذا لا يؤثر؛ فالقرآن محفوظ لم يتطرق إليه زيادة ولا نقصان، وما جاء أحد فقال عن آية: إنها ليست من القرآن، أو قال: هذه زيادة، أو نحو ذلك، أبداً، بل كل ذلك من القرآن، ولكنهم يختلفون فيما ذكرنا.

سبب الاختلاف في مواضع فواصل الآيات:

سبب الاختلاف في موضع الفاصلة ما ذكره بعض أهل العلم من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ عليهم القرآن، ويقف عند رأس كلِّ آية، فتلقوا ذلك عنه؛ لأن أخذ ذلك والحكم بأن هذه آية أو ليست بآية هذه أمور توقيفية وليست قضايا اجتهادية في الأصل، إنما كانوا يتلقون ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهناك ما وقف عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- دائماً، وهناك ما وصله النبي -صلى الله عليه وسلم- دائماً، وهناك أشياء وقف فيها ووصل فيها، فربما أنه لما أفهمهم -صلى الله عليه وسلم- بقراءته أن هذه رأس آية قرأها بعد ذلك اتكالاً أو اعتماداً على ما فهموا، فظن بعضهم أنها ليست رأس آية في هذا الموضع.

وقضية الآيات ورءوس الآيات كانت معروفة لدى الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- وجاء ذلك في الأحاديث، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يوضح لهم ولا يذكر لهم شيئاً إلا ويخاطبهم بما يعرفون.

فحينما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الدجال: ((من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال))[1]، وفي بعض الروايات: ((من آخر الكهف))[2]، فبماذا يخاطبهم؟ إنه يخاطبهم بشيء يعرفونه.

وحينما يقول عن سورة تبارك -صلى الله عليه وسلم-: ((سورة من القرآن ثلاثون آية))[3]، فهذا شيء معروف عندهم.

وكذلك حينما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عن آخر آيتين من سورة البقرة: ((من قرأهما في ليلة كفتاه))[4].

وكذلك ما جاء في الروايات الكثيرة في قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- الآيات العشر الأخيرة من سورة آل عمران، حينما قام من الليل[5].

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨٠٩) (ج ١ / ص ٥٥٥).

2 - صحيح مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨٠٩) (ج ١ / ص ٥٥٥)، وأبو داود في كتاب: الملاحم - باب: ذكر خروج الدجال (٤٣٢٣) (ج ٢ / ص ٥٢٠)، وأحمد (٢٧٥٥٦) (ج ٦ / ص ٤٤٦).

3 - أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة - باب: في عدد الآي (١٤٠٠) (ج ١ / ص ٤٤٥)، والترمذي في كتاب: فضائل القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: ما جاء في فضل سورة الملك (٢٨٩١) (ج ٥ / ص ١٦٤)، وأحمد (٧٩٦٢) (ج ٢ / ص ٢٩٩)، والحاكم (٢٠٧٥) (ج ١ / ص ٧٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٩١).

4 - أخرجه البخاري في كتاب: المغازي - باب: شهود الملائكة بدراً (٣٧٨٦) (ج ٤ / ص ١٤٧٢)، وفي كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة (٨٠٨) (ج ١ / ص ٥٥٥).

فعندنا شواهد كثيرة، لو أراد الإنسان أن يؤلف في ذلك كتاباً لوجد من الروايات ما يكفيه، فهو أمرٌ مشهورٌ ذائع معروف.

ما الفائدة من معرفة أن هذه آية كاملة أو جزء من آية؟:

معرفة هذا الأمر قد يحتاجه الإنسان فيما لو نذر -مثلاً- أن يقرأ عشر آيات، وقرأ من الآيات التي فيها هذا الخلاف، هل يكون قرأ تسعاً أو عشراً، فهو يحتاج لمعرفة ذلك حتى يتحقق من وفائه بنذره.

كذلك حينما يأتي ليطبق بعض الأحاديث في الفضائل فإنه يحتاج لمعرفة العدّ، كحديث: ((من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين))[٦].

حتى إن بعض أهل العلم في الأجزاء الأخيرة كالحافظ ابن حجر -رحمه الله- عدَّ من أين يبدأ حتى يكون قد قرأ ألف آية يصلي بها قبل أن ينام، ففي مثل هذا يحتاج إلى العد.

وكذلك أيضاً يحتاج إلى معرفة ذلك من قال: إن خطبة الجمعة لا بد فيها من قراءة آية كاملة، فلو قرأ في الخطبة قول الله تعالى: **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}**، فهل هذه آية كاملة أم لا بد مما بعدها لتتم له آية كاملة؟

كذلك في قضية الإعجاز، فلو قلنا: بماذا يثبت الإعجاز؟ فالجواب: يثبت بأقصر سورة من القرآن، وأقصر سورة ثلاث آيات.

إذن: هل نقول: أو ما يعادلها من آية طويلة، أو ثلاث آيات أخرى من القرآن على قول بعض أهل العلم؟ فهذا أيضاً يحتاج فيه إلى معرفة، وهكذا..

ولذلك العلماء اعتنوا بهذه القضية وألفوا فيها نظماً ونثراً، بل إن كثيراً من الكتب المؤلفة في هذا لأئمة كبار مخطوطة لا زالت لم تطبع.

فعلى كل حال هذا يمكن أن يرجع فيه إلى ما ذكرت من تنوع القراءات الناتج عن تعدد الأحرف التي نزل بها القرآن، فالقرآن نزل على سبعة أحرف.

طبعاً كان لا بد من ذكر هذا الكلام؛ لئلا يقع إشكال في ذهن أحد فيلتبس عليه الأمر، وإلا فنحن ما نطيل بهذه الطريقة، وإلا لن ننتهي ولا بعد ثلاثمائة سنة من هذا الكتاب، لكن هذه قضية لا بد من الوقوف عندها طالما أن المؤلف ذكرها.

"وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة، وأما حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد: هذا ما أحصيناه من القرآن وهو ثلاثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفاً، وقال الفضل عن عطاء بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً، وقال سلام أبو محمد الحماني: إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب، فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟ قال: فحسبنا فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف وأربعون

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء - باب: قراءة القرآن بعد الحدث وغيره (١٨١) (ج ١ / ص ٧٨)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٣) (ج ١ / ص ٥٢٥).

6 - أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة - باب: تحزيب القرآن (١٣٩٨) (ج ١ / ص ٤٤٤)، وابن خزيمة (١١٤٤) (ج ٢ / ص ١٨١)، وحسنه الألباني في المشكاة برقم (١٢٠١).

ألفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً" على كل حال عدد الكلمات وعدد الحروف الأقاويل فيها كثيرة جداً أيضاً، وهي مبنية على ما سبق.

ومبنية أيضاً على أمر آخر، خذ مثالاً يوضح لك القضية في سورة لا تلتبس على أحد: الكلمة الواحدة أحياناً يختلفون فيها هل هي كلمة واحدة أو أكثر؟، فالله -عز وجل- يقول: **{سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ}** [(٥٠) سورة إبراهيم]، فهل كلمة: **{قَطِرَانٍ}** كلمة واحدة "قطران"؟ أم هي كلمتان "قطر" و"آن"، أي: قطر حار؟

القطر معروف، و"آن" يعني حاراً، فعلى هذا هي كلمتان، وإلا فهي كلمة واحدة؟ فهم في مثل هذا يختلفون.

وكذلك يختلفون في نفس الكلمة من جهة أخرى من حيث عدّ الضمائر وعدم العدّ، فهل يعدون الضمائر مستقلة أو يعدون الكلمة الواحدة بما يرتبط فيها من ضمائر، كقوله تعالى: **{أَنُلْزِمُكُمُوهَا}** [(٢٨) سورة هود]؟

هذه الكلمة إذا عددتها كلمة واحدة بما ارتبط بها فهذا وجه، أو أنك تقول "أنلزم" هذه كلمة، و"الكاف" للخطاب، وتعد الضمائر مثل "الهاء"، فهل تعد هذه كلمة واحدة أو تعدها كلمات؟

كذلك قوله تعالى: **{أَنعَمتَ}**، هل تعدها كلمة واحدة؟ أو تقول "أنعم" كلمة و"التاء" كلمة أخرى؟ فهم يختلفون في العد بهذا الاعتبار.

وقل مثل ذلك بالنسبة لعد الحروف بناءً على أي شيء يتم العد؟ هل يكون بناءً على ظاهر الرسم؟

كذلك قوله تعالى: **{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [(٤) سورة الفاتحة] كيف كتبت في القرآن **{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**؟ كتبت من غير ألف فتعدها ثلاثة أحرف، أو تعدها بحسب النطق **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** فتصير أربعة أحرف؟

هناك حروف تكتب ولا تنطق، وهناك حروف ينطق بها ولا تكتب، فما هو المعتبر في العد؟

من عد كل حرف مرسوم فإن عده يختلف عن عدِّ من قال بعدّ الحروف التي ينطق بها، وقل مثل ذلك في الكلمات، فيقع اختلاف كثير في عدد الحروف بهذا الاعتبار، كما يقع الخلاف في عدد الكلمات.

وعلى كل حال، العلماء تكلموا عن هذا كثيراً، فالحجاج كان من أكثر الأمراء عنايةً بالقرآن، وهذا من العجائب والغرائب في التناقضات، وهذا يدل على أن شخصيته كانت غير طبيعية، بل كانت متناقضة، لا يعرف من الأمراء من كان أكثر عناية بالقرآن من الحجاج، فقد كان يقرأ كل ليلة ربع القرآن، وجاء بمجموعة كالحسن البصري وجماعة وأعطاهم حب شعير، وبقوة السيف أرهبهم وأمرهم أن يعدوا كل حرف في القرآن بحبات الشعير، ويبينوا له أين ينتهي الربع الأول، وينتهي النصف؛ على أساس أنه يقرأ إلى الحرف الأخير الذي يقف عنده في نهاية الربع، وفي نهاية النصف وهكذا، فعملوا له ذلك حتى انتهوا من هذا كله في نحو أربعة أشهر، فكان كل ليلة ما ينام حتى يقرأ ربع القرآن.

فالحاصل أن العلماء اعتنوا بهذا عناية كبيرة جداً، وتجدون الكلام على مثل هذه الأشياء في الكتب التي تتكلم عن العد وهي كثيرة، وتجدونه في كتاب: [البرهان في علوم القرآن للزركشي]، وكذلك: [الإتقان للسيوطي]، وكذلك في كتاب: [جمال القراء للسخاوي علم الدين]، والكتاب عبارة عن مجموعة من الرسائل في موضوعات تتعلق بعلوم القرآن، جمعها في كتابٍ واحد، وفي إحدى هذه الرسائل كان يتحدث عن قضية العد.

وتجد مثل ذلك في كتاب: [بصائر ذوي التمييز] تجد على سبيل المثال: كيف كانوا يعتنون بهذه القضية، والخدمة التي لقيها كتاب الله -عز وجل- من قبل هؤلاء العلماء -رحمهم الله- وتكلم على عدد الآيات، وعدد

الكلمات، يقول مثلاً: قراء الكوفة عدوا قوله تعالى: {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} آية، والباقون لم يعدوها آية، ويقول: بل جعلوا آخر الآية: {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} [(٢) سورة ص].

وقراء الكوفة عدوا: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ} [(٨٤) سورة ص] آية، والباقون لم يعدوها، بل جعلوها: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} [(٨٥) سورة ص].

فالحاصل أنه تكلم على هذا، ثم بدأ يتكلم على عدد كلمات القرآن، وعدد الحروف، ثم بدأ يتكلم عما هو أغرب من ذلك حيث تكلم عن عدد النقط في القرآن.

ثم بدأ يتكلم عن عدد الألفات في القرآن، حيث أتى بكل الحروف الهجائية، فذكر كل حرف وكم مرة تكرر، وهو تفنن عجيب.

ومثل هذا الكتاب أيضاً كتاب: [فنون الأفنان في عيون علوم القرآن لابن الجوزي]، تجد فيه أشياء عجيبة جداً، وهو مولع بهذه الأشياء، يذكر مثلاً أسئلة أو قل: ألغازاً فيقول: سبع آيات متواليات، آخر كلٍ منها اسمان لله -عز وجل-؟ آيات أول كل حرف منها حرف الشين؟ آية تحتوي على حروف المعجم كاملة؟ سور ليس فيها لفظ الجلالة؟

ثم تكلم على تحزيب القرآن، وذكر تقسيمات عجيبة جداً -فتأمل حتى تعرف شدة عناية العلماء بهذا القرآن- تكلم عن عدد الآيات والحروف، وتكرار حروف المعجم في القرآن حرفاً حرفاً كما سبق، وعدد النقط في القرآن، وذكر أجزاء القرآن، وأين النصف، وأثلاث القرآن، وأرباع القرآن، أين ينتهي الربع، وأين ينتهي الخمس إذا أردت أن تقرأ في كل يوم خمس القرآن، أين الأسداس، الأسباع، الأثمان، الأتساع، الأعشار، أنصاف الأسداس، أنصاف الأسباع، أنصاف الأثمان، أنصاف الأتساع، أنصاف الأعشار، ثمانية وعشرين جزءاً، ثلاثين جزءاً وهكذا، قسموه بهذه الطريقة.

إذا أردت أن تحفظ القرآن في سنة، فأين ينتهي بالضبط مقدار كل جزء من هذه الأجزاء المقسمة على أيام السنة، فعدوا الحروف، حتى عدوا نصف القرآن أين ينتهي يعني إلى أي حد، وتعرفون الكلام على تفسير الجلالين هل يمسه غير المتوضئ أو لا؟، باعتبار القول: إنه إذا كان التفسير أغلب فإنه لا بأس، فعدوا حروف الجلالين مع حروف القرآن، فوجدوها متساوية أظن إلى سورة المزمل، فهذه العناية لم يحظ بها كتاب مثل هذا القرآن.

"قال: فأخبروني عن نصفه؟ فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف: {وَلْيَتَلَطَّفْ} [(١٩) سورة الكهف]" نقل عنه أنه كان يقرأ إلى هذا الموضع في الليلة الثانية حيث كان كل يوم يقرأ ربع القرآن، والأصل أن هذه الطريقة غلط، حيث ينبغي للإنسان أن يكمل الآية، والأفضل أن يكمل السورة، وهذا كان يقف على الحرف في الربع وفي النصف وهكذا، فما كان يريد أن يزيد عليها حرفاً واحداً، وهذه الطريقة غير شرعية.

"وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء، والثالث إلى آخره، وسبعه الأول إلى الدال من قوله تعالى: {فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ} [(٥٥) سورة النساء]، والسبع الثاني إلى التاء في قوله تعالى في سورة الأعراف: {حَبِطَتْ} [(١٤٧) سورة الأعراف] } والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى في الرعد: {أُكُلُهَا} [(٣٥) سورة الرعد] والرابع إلى الألف في الحج من قوله:

{جَعَلْنَا مَنسَكًا}" الذين يتكلمون الآن على ما يسمونه بالإعجاز العددي بناءً على عدد الآيات، وعدد الكلمات وعدد الحروف، هل يمكن أنهم يأتون بشيء يبنى عليه قولٌ بالإعجاز؟

هذه المعاني العجيبة التي يستنبطونها في نهاية الدنيا، وقيام القيامة وانتهاء دولة اليهود، هذا الكلام يمكن أن يعتمد عليه؟ كيف يعدون وأكثر هؤلاء ما يعرفون طريقة العد أصلاً، ولا سمعوا بخلاف أهل العلم في عدِّ الآي وطريقتهم في العد!، وتكلمنا على هذا في التفسير العلمي والإعجاز العددي، وبينت الأعداد التي يذكرونها، وأين هي من الواقع.

"**والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ} [**(٣٦) سورة الأحزاب**]، والسادس إلى الواو من قوله تعالى في الفتح: {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ} [**(٦) سورة الفتح**]، والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: علمنا ذلك في أربعة أشهر، قالوا: وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر الأنعام، والثاني إلى: {وَلْيَتَلَطَّفْ} من سورة الكهف، والثالث إلى آخر الزمر، والرابع إلى آخر القرآن، وقد حكى الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه البيان خلافاً في هذا كله، فالله أعلم.**

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس" الربعات: جمع ربعة، وهي كما تقول: المكان أو الصندوق الذي يوضع فيه أوراق المصحف، أو توضع فيه المصاحف أو نحو هذا.

"**وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة: أنه سأل أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حياته كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلثاً وخمساً وسبعاً وتسعاً وأحد عشر وثلاثة عشر وحزب المفصل حتى تختم**" على كل حال التجزئة هذه على ثلاثين جزءاً لم تكن في زمن الصحابة -رضي الله عنهم-، وشيخ الإسلام -رحمه الله- تكلم على هذا، وبين أن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- كانوا يجزئون بالسور، وما كانوا يجزئون بهذه الأجزاء؛ لأن التجزئة بالسور أكمل وأتمّ بحيث إن السورة تقرأ كاملةً، وأما في التجزئة فقد يكون رأس الجزء في وسط قصة وبالتالي فالمعنى لم يكتمل، فيتوقف الإنسان بناءً على نهاية الجزء، فالتجزئة بالسور أفضل من التجزئة بالطريقة المنتشرة المشهورة.

وعلى كل حال هذه الرواية التي ذكرها، فالذي أذكر أنها غير صحيحة بل هي ضعيفة من جهة الإسناد، ويمكن أن يراجع هذا، وهي في سياق ذكر الوفود الذين يأتون النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكان يأتي إليه مثلاً وفد ثقيف، ويقف يراوح بين قدميه، وتأخر عليهم ذات ليلة، وقال: إنه قد شغلني وردي أو حزبي من القرآن، فسئل الصحابي كيف تقسمون؟ فلتراجع على كل حال.

لكن على كل حال التقسيم المشهور هو بالسور، هذا هو المعروف، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((((لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث))[7].

وقال لعبد الله بن عمرو أيضاً: ((اقرأ القرآن في أربعين))[8].

---

7 – أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة – باب: في كم يقرأ القرآن؟ (١٣٩٠) (ج ١ / ص ٤٤٢)، والترمذي في كتاب: القراءات – باب: ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف (٢٩٤٩) (ج ٥ / ص ١٩٨)، وابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها – باب: في كم يستحب ختم القرآن؟ (١٣٤٧)، وأحمد (٦٥٣٥) (ج ٢ / ص ١٦٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢٢٠١).

وفي الرواية المشهورة عنه كما في البخاري: ((اقرأ القرآن في شهر))، قال: قلت: إني أجد قوة، حتى قال: ((فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك))[٩].

فتقسيمه إلى سبع على كل حال تقسيم مشهور وهو الذي كان يرتضيه ويختاره عامة أهل الحديث، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

---

8 - أخرجه الترمذي في كتاب: القراءات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب: (١٣) حديث رقم (٢٩٤٦) (ج ٥ / ص ١٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١١٥٤).

9 - أخرجه البخاري في كتاب: فضائل القرآن - باب: في كم يقرأ القرآن وقول الله تعالى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} [(٢٠) سورة المزمل] حديث رقم (٤٧٦٧) (ج ٤ / ص ١٩٢٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٣)

معنى السورة واشتقاقها وذكر ما ورد في فضل سورة الفاتحة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

"فصل: واختلف في معنى السورة ممَا هي مشتقة، فقيل من الإبانة والارتفاع.

قال النابغة:

ألــم تــر أن الله أعطــاك ســورة   ترى كــل ملــك دونهــا يتذبــذب

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

تعريف السورة في اللغة:

يقول ابن كثير -رحمه الله- عن السورة: "**قيل: من الإبانة والارتفاع**" بعض أهل العلم من يرجع الكلمات إلى أصولها، وهي طريقة فذَّة وجيدة في تفسير الألفاظ كالطريقة التي يسلكها أحمد بن فارس -رحمه الله-، فعلى طريقته هو يرجع هذه اللفظة إلى العلو والارتفاع، فيقول: كل استعمالات هذه الكلمة تدل على علوٍّ وارتفاع، أو ترجع إلى معنى العلو والارتفاع.

وهنا يقول ابن كثير: "**قيل من الإبانة والارتفاع**" لو قال: فقيل من الإبانة أو الارتفاع لكانت العبارة أدقَّ؛ لأن القول بأنها من الارتفاع غير القول بأنها من الإبانة، فالقول بأنها من الارتفاع يعني أنها برفعةِ شأنها وجليل قدرها وعلو شأنها قيل لها: سورة، ومنه قول الشاعر يمدح ملكاً:

ألــم تــر أن الله أعطــاك ســورة   ترى كــل ملــكٍ دونهــا يتذبــذب

أي: أعطاك منزلةً رفيعة، فهذا هو المعنى إذا كانت مأخوذة من العلو والارتفاع.

وإذا قيل: إنها مأخوذة من الإبانة -وهو المعنى الثاني الذي ذكره هنا- فهي باعتبار أنها منفصلة عن غيرها، الإبانة: بمعنى أنها منفكة عن غيرها، فهي وحدة مستقلة من الآيات، منفصلة عما قبلها وعما بعدها، وهذا كله إذا قلنا: إنها مأخوذة من الإبانة والارتفاع، وعلى كل حال بعضهم يقول غير هذا، كقول من يقول بأنها مأخوذة من الشدة، أو مأخوذة من القوة، كقولك: سَوْرة الأسد، وكقولنا: سَوْرة الغضب، وكقولنا أيضاً: سَوْرة الشراب أي: المسكر -يعني قوة الإسكار وشدته، فبسبب قُوَّتها قيل لها ذلك، لكن هذا فيه بُعد.

وبعضهم يقول: مأخوذة من الجمع كما يقولون: هذا سَورٌ من الإبل، بمعنى جماعة من الإبل، فيقولون: هذه السورة باعتبار أنها مجموعة من الآيات، وأقل السور ثلاث آيات فقيل لها ذلك.

وبعضهم يرجع ذلك إلى معنى الإحاطة، وبعضهم يجمع بين الإحاطة والارتفاع، مثل سور المدينة؛ لارتفاعه ولإحاطته بالبنيان في داخله، فقديماً كانت المدن والقرى لها أسوار تحيط بها، فهذا السور يكون محيطاً بما في داخله من البيوت.

"**فكأن القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة، وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلدان**" الآن سور البلدان ليس له علاقة بالشرف، وإنما له علاقة بمعنيين هما: الارتفاع والإحاطة، لكن الشرف يتعلق بالعلو والارتفاع، بمعنى: لشرفها، فالشريف رفيع، وهي رفعة معنوية، فهي منزلة كما قال: "**ألم تر أن الله أعطاك سورةً**": يعني منزلةً رفيعة، فقيل لها ذلك بمعنى الارتفاع، أي: لعلو مكانتها ومنزلتها وشرفها، فهذه المعاني تفترق بهذه الطريقة، وبالتالي لا نرجعها إلى سور المدينة بمعنى العلو والشرف، وإنما يكون بمعنى الإحاطة والعلو.

والأمر في هذا سهل؛ إذ لا يوجد أحد تخفى عليه السورة، فالسورة هي التي تعرفون من القرآن، سور طوال، وسور قصار، وسور متوسطة، لا تخفى على أحد.

"**وقيل سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه، مأخوذٌ من أسئار الإناء وهو البقية**" هذا المعنى بناءً على أنها مهموزة؛ لأن السورة من غير همز (سورة)، وبعضهم يجعلها مهموزة فيقول: (سؤرة) بالهمز، فإذا قلنا: سؤرة فبعضهم يقول: من السؤر وهو البقية، فهي كأنها بقية من القرآن، يعني بعض من القرآن؛ لأن السؤر هو جزء من الشيء، فإذن: هذا المعنى يرجع إلى ما كان بالهمز (سؤرة وليست سورة) إلا على التسهيل.

"**وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً؛ لانضمام ما قبلها، وقيل: لتمامها وكمالها؛ لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة**" هذا أحد المعاني اللغوية للسورة، أي: وقيل لها سورة لتمامها وكمالها، وليس المقصود بكلامه هنا أنه بسبب تمامها خففت الهمزة كما قد يُتوهم.

فلو قال قائل: لماذا قيل للسورة سورة؟ يقال: قيل لها سورة لكمالها وتمامها، كما قال هنا: "**العرب يسمون الناقة التامة سورة**".

"**قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها، كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله ودوره، وجمع سورة سُوَر -بفتح الواو- وقد يجمع على سُوْرات وسُوَرات**" يجمع على سُوْرات -بضم السين وسكون الواو- وسُوَرات بضم السين وفتح الواو.

تعريف السورة في الاصطلاح:

السورة في الاصطلاح يذكرون لها معانى كثيرة متقاربة، فيمكن أن يقال فيها: إنها قرآن مشتمل على آيات أقلها ثلاث.

وقلنا: ثلاث باعتبار الاستقراء؛ إذ لا دليل عندنا على أن أقلها ثلاث إلا الاستقراء حيث وجدنا أقصر سورة في القرآن هي عبارة عن ثلاث آيات، فأقل السور ثلاث آيات ذات مطلع ومقطع تمثل وحدة مستقلة من القرآن.

معنى ذات مطلع ومقطع:

هذه عبارة نجدها كثيراً في التعريفات، ولكن لا تكاد تجد أحداً يشرحها، بل ما رأيت أحداً شرحها، فأقول: معنى ذات مطلع ومقطع: أي لها بداية ونهاية، مطلع مبتدأ، ومقطع أي يفصلها عن منتهى يحدها ويفصلها عن غيرها.

تعريف الآية في اللغة:

"**وأما الآية: فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها**" المعنى اللغوي للآية: إما أن تكون من العلامة.

ثم إن قوله: "**انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها**" هذا تعليل، أي: لماذا سميت الآية علامة بهذا الاعتبار؟ فيقال: قيل لها علامة لأنه يعرف بها المقطع وأنها منفصلة أو قل: إن لها حداً يعرف به حد الآية عما بعدها، وتتميز عما قبلها، فهذا تعليل التعريف الأول للآية لغة، وهذا على أحد المعاني اللغوية لها.

ومن معاني الآية في اللغة: أنها علامة على صدق من جاء بها، أو لكونها علامة على ما تضمنته من الأحكام فهي دالة عليه، فهذا إذا قلنا: إنها من العلامة.

إذن: العبارة إذا أردنا أن ندقق في ضبطها نقول: معنى الآية قيل: من العلامة؛ إما لأنها علامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها، فنعرف بها حدود الآيات والوحدات داخل السورة، فهي علامة يعرف بها ذلك، أي هي بائنةٌ عن أختها ومنفردة، وإما أنها علامة على صدق من جاء بها، أو لكونها علامة على ما تضمنته من الأحكام فهي دالة عليه، أو أن الآية هي كما قال الله تعالى: **{إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ}** [(٢٤٨) سورة البقرة]، فالآية هنا بمعنى العلامة، والمقصود علامة ملكه.

"**أي هي بائنةٌ عن أختها ومنفردة، قال الله تعالى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ}، وقيل: سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها**" الآن هذا ما له علاقة بالعلامة، الآن هذا معنى آخر من معاني الآية، فالآية إما من العلامة وهذا هو المعنى الأول الذي ذكرناه، أو أنها آية أي من العجب، بمعنى أن الشيء العجيب يقال له: آية، كما يقال: آية ليس له في الحسن نظير، بمعنى ليس له في الحسن مماثل، وكأن تقول: رأيت إنساناً هو آية في الذكاء، فالمعنى: رأيت إنساناً هو عجب في الذكاء، وهكذا..

"**قال سيبويه: وأصلها أَيَيَة مثل...**" هذا الاشتقاق، لكن حتى الآية قيل فيها غير هذا، فقيل: هي بمعنى أنها جماعة من الكلمات، وربما الجمل تمثل هذه الوحدة التي يقال لها آية، وهو معنى معروف أيضاً في كلام العرب، ومنه قول الشاعر وهو برج بن مسفر:

خرجنا من النقبـين لا حـي مثلنـا ... بآيتنـا نجـزي اللقـاح المطافـل

بآيتنا: يعني بجماعتنا، أي: خرجنا بجماعتنا، فممكن أن تكون بمعنى الجماعة.

"**قال سيبويه: وأصلها أَيَيَة، مثل أَكَمَة وشجرة**"، هذا التصريف للآية، أصلها أيية وهذا هو المشهور.

"**تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، فصارت آية بهمزة بعدها مدة، وقال الكسائي: أصلها آيِيَة على وزن آمنة، فقلبت ألفاً ثم حذفت لالتباسها، وقال الفراء: أصلها أَيَّة بتشديد الياء، فقلبت الأولى ألفاً كراهية التشديد فصارت آية، وجمعها آيٌ وآيات وآياي**" على كل حال المشهور هو الأول.

المعنى الاصطلاحي للآية والفرق بين الآية والسورة:

معنى الآية في الاصطلاح يمكن أن يقال: إنها قرآنٌ مركب من جمل ولو تقديراً، وبعضهم يقول: أو إلحاقاً، ذو مطلعٍ ومقطع مندرج في سورة.

والفرق بين الآية والسورة أن السورة مجموعة من الآيات، والآية ليست كذلك، فهي قرآن مركب من جمل ولو تقديراً.

والمقصود بقولهم: مركب من جمل ولو تقديراً، يعني أقصر آية ما هي؟ هي قوله تعالى: {مُدْهَامَّتَانِ} [(٦٤) سورة الرحمن]، فهذا مثال الجمل التقديرية لأن التقدير: (هما مدهامَّتان).

والمقصود بقولهم: أو إلحاقاً مثل الحروف المقطعة، فقوله تعالى: {الم} [(١) سورة البقرة]، وقوله: {الَر} [(١) سورة الحجر] هذا يسمى إلحاقاً، ولا يصح أن يقال: إن الحروف المقطعة من الجمل التقديرية؛ لأنك لا تقدر فتقول: (هم ألف لام ميم، أو هم ألف لام راء) كما قدرت في قوله تعالى: {مُدْهَامَّتَانِ} [(٦٤) سورة الرحمن]، فقلت: (هما مدهامَّتان).

ومن الأمثلة على الجمل التقديرية في القرآن قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ} [(١) سورة العصر]، فالتقدير: (أقسم بالعصر)، فالواو واو القسم، أقسم بالعصر، فإذن: الآية قرآن مركب من جمل ولو تقديراً، فـ (مدهامَّتان) آية وما هي جملة في الظاهر، لكن تقديراً هي جملة: (هما مدهامَّتان) فحذف (هما) للعلم به، وهكذا.

وعلى كل حال يمكن أن يختصر هذا فيقال: الآية طائفة من القرآن ذات مطلع ومقطع مندرج تحت سورة.

والآية لا تخفى فهي معروفة، كقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص]، هذه آية ما يخفى على أحد.

"وأما الكلمة: فهي اللفظة الواحدة، وقد تكون على حرفين مثل: "ما" و "لا" ونحو ذلك، وقد تكون أكثر، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل: {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم} [(٥٥) سورة النـــور]، و {أَنُلْزِمُكُمُوهَا} [(٢٨) سورة هود] {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} [(٢٢) سورة الحجر]، وقد تكون الكلمة الواحدة آية" طبعاً هذا الذي ذكره هو باعتبار أنه يرتبط بعضه ببعض، فجاء بهذه الجمل، لكن إذا أردنا أن نفصِّل هذا فنحذف الضمائر، فسيخرج عندنا أقل من هذا بكثير، فإذا أتيت إلى قوله تعالى: {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم}، ليستخلفنهم أصلها من: استخلف، وقوله: {أَنُلْزِمُكُمُوهَا}: من ألزم، وقوله: {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ}: من سقى، وهذا إذا أرجعناها إلى الأفعال، وإلا فنقول الأولى أن ترجع إلى الاستخلاف، والثانية إلى الإلزام، والثالثة إلى السقي.

"وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل: {وَالْفَجْرِ} [(١) سورة الفجر]، {وَالضُّحَى} [(١) سورة الضحى]، {وَالْعَصْرِ} [(١) سورة العصر]" على خلاف كما ذكرت فيما سبق.

وكذلك {الم} [(١) سورة البقرة] **و {طه} [(١) سورة طــه] و {يس} [(١) سورة يـــس] و {حم} [(١) سورة الدخان] في قول الكوفيين و {حم* عسق} [(١-٢) سورة الشورى] عندهم"** طبعاً عندما يقول: في قول الكوفيين ليس هذا رأي الكوفيين، وإنما المقصود بهم قراء الكوفة أمثال الكسائي، إذ قرأ بها الكوفيون: يعني الكوفيين الثلاثة -مشاهير هؤلاء الأئمة- وقراءتهم ليست من جهة الرأي، وإنما ذلك كله بتوقيف، فكله قرآن، وكما سبق في الكلام على عد الآي بأن ذلك ربما يرجع إلى القراءة، فعلى قراءة الكوفيين يكون ذلك آية.

"**وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول هذه فواتح السور، وقال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى: {مُدْهَامَّتَانِ} بسورة الرحمن.**

فصل: قال القرطبي: وأجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية، كـ(إبراهيم ونوح ولوط)" نوح اسم أعجمي لكنه من الأعلام الأعجمية المصروفة؛ لأن الأعجمي إذا كان أوسطه ساكناً فإنه يصرف، وبالنسبة لـ هود ما ذكر هنا؛ لأن هود -عليه الصلاة والسلام- أصله عربي على قول طائفة كما في حديث أبي ذر -رضي الله عنه-.

وهذا الحديث حسنه بعض أهل العلم، حيث ذكر أن أربعة من الأنبياء من العرب، محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهود، وشعيب، وصالح، فـ(هود وصالح) من العرب البائدة كما يقولون، وهذا على قول من يقسم العرب إلى هذا التقسيم.

فعلى كل حال بناءً على أنها أسماء عربية فهي منصرفة، وبناءً على أنها أعجمية فهي مصروفة؛ لأن وسطها ساكن، كـ(لوط وهود).

"**وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كـ(إبراهيم ونوحٍ ولوط)، واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية، فأنكر ذلك الباقلاني والطبري، وقالا: ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات**"، هذه المسألة هي وجود ما يسمى بالمعرّب، وقد مر بنا في درس المراقي في أصول الفقه:

ما استعملت فيما لهوجا العرب	في غير ما لغتهم معرب
ما كان منه مثل إسماعيل	ويونس قد جاء في التنزيل
إن كان منه.....	....

فهذا يدل على أن في الأعلام هذه خلافاً.

قال: "**وأجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية**" وفي المراقي يقول: إن كان منه، يعني حتى الأعلام بعض أهل العلم يقول: هي هكذا في كل اللغات، وبالتالي لا يحكم عليها بأنها أعجمية أو عربية، لكن هذا القول فيه نظر؛ لأن الأسماء منها ما هو أعجمي، ومنها ما هو عربي، وهذا معروف لا ينكر، وحتى العلماء تكلموا في التسمية بالأسماء الأعجمية، وفيما لا يعرف معناه من أسماء الأشخاص وأسماء عموم الأشياء من الذوات والمعاني وغير ذلك، وقالوا: لا يطلق أسماء لا يعرف معناها؛ لأنها قد تكون فيها أشياء شركية و نحو ذلك، ثم إن وجود الأسماء الأعجمية أمرٌ مشاهد.

فعلى كل حال من أهل العلم من يقول: لا يحكم على أسماء الأعلام بأنها أعجمية، ولهذا قال هنا في المراقي:

إن كان منه واختيار الأكثر	والشافعي النفي للمنكَّر

فصار عندنا القسمة ثلاثية، فعندنا الأعلام، ومعنى الأعلام: أسماء الأشخاص مثل: إسماعيل، وإبراهيم، ويونس، ويوسف، هذه أسماء أعجمية، وبعضهم نقل عليها الإجماع، فهذا لا إشكال في وجوده في القرآن؛ لأن الأسماء الأعجمية تطلق في الأصل كما هي وإن كانت العرب تتصرف في الألفاظ الأعجمية بعض التصرف، مما يتلاءم مع لغاتها، فالعرب لا ينطقون باللفظة الأعجمية كما ينطق بها الأعجمي بحيث يلوي لسانه كما في لغة القطط، وإنما القاعدة عندهم في هذا هي: أعجميٌ فالعب به.

ولذلك بعض الناس إذا سمع إنساناً ينطق لفظة إنجليزية أو غيرها على غير وجهها، يضحك منه أو يبتسم ابتسامة ساخرة، وينظر إلى هذا الإنسان على أنه بدوي؛ لأنه لا يعرف كيف ينطق الكلمات الحضارية، وهذه نظرة خاطئة؛ إذ لا بأس عليك أن تنطق بها بما يتلاءم مع لغتك.

فالراديو مثلاً لا بأس أن تقول رادو، ومثله التلفون وأشباه ذلك مما ينطق به عامة الناس، والأحسن أن تسميها بالأسماء العربية، فتقول: مذياع، وهاتف، وما أشبه هذا، لكن لا تلوي لسانك بها كما يلويه الأعجمي؛ فليس ذلك من شأن العرب.

فالحاصل أن الأسماء الأعجمية موجودة بلا شك في القرآن مثل: إسماعيل، وإبراهيم، ويونس، ويوسف..الخ، وهذه يكاد يتفق العلماء عليها.

والقسم الثاني الذي يقابله يتفق العلماء على أنه غير موجود قطعاً وهو التراكيب، فلا يوجد جملة أعجمية في القرآن أبداً؛ إذ كيف يوجد ذلك والله -عز وجل- قال: **{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}** [(١٩٥) سورة الشعراء]، ولا يدعي هذا أحد إطلاقاً، وما قال أحد: إنه يوجد في القرآن تركيب أعجمي أبداً، وقائل ذلك لو قاله فهو مكذب بالقرآن.

الألفاظ المنكَّرة:

الألفاظ الأعجمية المُنكَّرة مثل: مشكاة، قسطاس وإستبرق، وسندس، وأشباه ذلك من الألفاظ المنكرة، فهذا هو الذي وقع فيه الخلاف بين أهل العلم، فإذا قيل: هل يوجد في القرآن ما يسمى بالمعرّب، والمعرّب يعني الألفاظ الأعجمية التي استعملتها العرب فيما وضعت له في الأعجمية، أي: نقلوه إلى لغتهم، أي: نقل إلى اللغة العربية للمسمى نفسه، فهل هذا موجود أو غير موجود؟

هذا الذي فيه الخلاف الكثير بين أهل العلم.

فمن قائل: إنه موجود، قيل: وكيف تقولون في قوله تعالى: **{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}** [(١٩٥) سورة الشعراء]؟ قالوا: نقول: إن وجود الكلمة والكلمتين لا يؤثر، فالألفاظ القليلة لا تؤثر في بحر القرآن، والعبرة في الغالب.

وبعض أهل العلم يقول: هذه الأسماء أو الألفاظ ليست لغة العجم أحق بها، فأنتم لماذا تقولون: أصلها أعجمية ونقلها العرب إلى لغتهم، فلماذا لا تعكسون القضية وتقولون: هي عربية والعجم أخذوها منا؟ والدليل عندنا أن الله -عز وجل- قال: **{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}**، إذن: هي عربية أصلاً فالعجم أخذوها؟

وبعضهم يقول: لماذا يُدّعى أنها أعجمية، هذه الأشياء قد تكون مشتركة بين اللغات.

وبعضهم يهون من شأن هذا، ويقول: على كل حال إذا فرض أن أصولها أعجمية فإن العرب أخذتها، ونطقت بها واستعملتها بطريقةٍ تتلاءم مع لغة العرب ومخاطباتهم فذابت في لغتهم، وأصبحوا يعرفون معناها عند الإطلاق، ولا يخفى ذلك عليهم، فصارت من جملةِ لغتهم وإن كان أصلها أعجمياً، فنزل القرآن بلغة العرب، وكانت هذه الألفاظ مما يستعملون في لغتهم ويتداولونها فيما بينهم فنزل القرآن بذلك، فهذا موافقٌ لقوله تعالى: **{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}** إذ إن هذه الألفاظ ذابت في لغة العرب، وصارت في جملة لغتهم..

فعلى كل حال، المسألة هذه خلاصة ما قيل فيها، وهذه الألفاظ -فيما أعرف- من أكثر من جمعها وتتبعها، وقال بأن هذه أعجمية هو السيوطي في كتابٍ له مطبوع في المغرب، اسمه: [المعرَّب]، حيث جمعها ووضعها في جداول.

"**سورة الفاتحة:** {بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} **[(١ – ٧) سورة الفاتحة].**

يقال لها: الفاتحة أي: فاتحة الكتاب خطاً، وبها تفتتح القراءة في الصلوات، ويقال لها أيضاً: أم الكتاب عند الجمهور" هذا شروع في ذكر أسماء سورة الفاتحة، وأسماء الفاتحة أكثر بعض العلماء من تعدادها، حتى إن بعضهم ربما أوصلها إلى نحو من ثلاثين اسماً، بل عد لها بعضهم كالسيوطي في "الإتقان" ما يزيد على العشرين اسماً، وكثير من هذه الأسماء التي يذكرونها هي أوصاف، ومنها أشياء لا تثبت أصلاً، فأسماء الفاتحة هي أقل من ذلك.

لو وقفنا مع الأشياء التي يصح أن تكون أسماء مما صح فيه الدليل لكان هذا هو اللائق، فمن أسمائها: الفاتحة، وسميت الفاتحة؛ لأنه يفتتح بها القرآن، وهذا إذا قلنا: إن ترتيب السور توقيفي فهو واضح جداً، وإذا قلنا: إنه ليس بتوقيفي فهي مفتتحٌ بها المصاحف على كل حال، لكن أن يكون ذلك هو سبب التسمية ربما يكون فيه إشكال.

كذلك سميت الفاتحة؛ لأنه تفتتح بها القراءة في الصلاة، حيث تقرأ الفاتحة أولاً ثم تقرأ سورة، وليس العكس، وهذا واضح أيضاً.

"**وقد ثبت في الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:** **((الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم))**[١]، **ويقال لها: الحمد، ويقال لها الصلاة**" يقال لها: الحمد -كما في الحديث- باعتبار أنها مبدوءة بالحمد ومشتملة على الحمد، ويقال لها: أم القرآن -كما يقول بعض أهل العلم- باعتبار أنها تشمل معاني القرآن وذلك أنها تدور عليها، وترجع إليها، ولهذا قيل لراية الجيش: أُمّ، ويقال للجلدة التي تجمع الدماغ: أُمُّ الدماغ، فهي أمٌّ باعتبار أنها جامعة لمعاني القرآن، فمعاني القرآن ترجع إليها، فهي أم القرآن، وهي أم الكتاب كذلك.

وأما تسميتها السبع المثاني؛ فلكونها سبع آيات، والله -عز وجل- وصف القرآن جميعاً بأنه مثانٍ، قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ} [(٢٣) سورة الزمر]، بمعنى أنه مشتملٌ على الثناء على الله –عز وجل-، أو لأنه يثنى بالقراءة أو غير ذلك.

والمثاني أيضاً هو القسم المعروف في القرآن، وهي الآيات التي تقرب من المائة وهي دون المائة، ومن الأوجه في تسمية القرآن بالمثاني أنها تذكر حال أهل الجنة ثم تثني بذكر حال أهل النار.

1 – أخرجه دون قوله: ((والقرآن العظيم)) أبو داود في كتاب سجود القرآن – باب: فاتحة الكتاب (١٤٥٧) (ج ١ / ص ٤٦١)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن – باب: تفسير سورة الحجر (٣١٢٤) (ج ٥ / ص ٢٩٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٢٩٣).

والفاتحة مثانٍ باعتبار أنها تثنى، وهي سبع آيات كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}** [(٨٧) سورة الحجر]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته))[٢].

"**ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة؛ لقوله -صلى الله عليه وسلم- عن ربه: ((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين..))**[٣] قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين)) يبدو -والله أعلم- أن هذا ليس من الأسماء للسورة، وإن كان ثَمّ ذكر ذلك بما يدل على أن المقصود بها الفاتحة، فإنه أطلق عليها ذلك ربما لأهميتها في الصلاة، ومكانتها، وأنها ركنٌ فيها؛ فإن الشيء قد يسمى ببعض أجزائه وقد يكون العكس.

"**((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي))، الحديث، فسميت الفاتحة صلاة؛ لأنها شرط فيها، ويقال لها: الرقية؛ لحديث أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وما يدريك أنها رقية))**[٤]" على كل حال أقرب ما يمكن أن يقال: إن ذلك من أوصافها، يعني أنه يرقى بها لا أن سورة الفاتحة تسمى سورة الرقية.

"**وهي مكية قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقتادة ، وأبو العالية؛ لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي} [(٨٧) سورة الحجر]، والله تعالى أعلم**" وجه الاستدلال بهذه الآية على أن سورة الفاتحة مكية هو أن هذه الآية من سورة الحجر، وسورة الحجر سورة مكية، فهي تتحدث عن الفاتحة، فهذا دليلٌ من القرآن على أن سورة الفاتحة نازلة بمكة، وهذا هو المعروف عند أهل العلم، ولا يلتفت إلى غيره.

بعض أهل العلم قال: نزلت في المدينة، واستدلوا على هذا بحديث مشهور في صحيح مسلم: ((بينما جبريل قاعد عند النبي -صلى الله عليه وسلم- سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة))[٥]، فإن قيل: هذا كان في المدينة، فكيف جاء بفاتحة الكتاب وهي نزلت بمكة؟

يقال: هو لم يأتِ بها أصلاً، وإنما بشر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، والبشارة يمكن أن تكون أيضاً على أمرٍ قد مضى، فبين له المزية لسورة الفاتحة وآخر آيتين أوتيهما -صلى الله عليه وسلم- من سورة البقرة، فالبشارة يمكن أن تكون عن شيء كان في الماضي، وهو كذلك، فلا يفهم منه أنه هو الذي نزل بها كما قال بعض المعاصرين: إن بعض القرآن قد ينزل به غير جبريل، فالأمر واضح أن جبريل هو الذي نزل

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب: التفسير - باب: ما جاء في فاتحة الكتاب (٤٢٠٤) (ج ٤ / ص ١٦٢٣).

3 - أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة - باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٥) (ج ١ / ص ٢٩٦).

4 - أخرجه البخاري في كتاب: الطب - باب: النفث في الرقية (٥٤١٧) (ج ٥ / ص ٢١٦٩).

5 - أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة (٨٠٦) (ج ١ / ص ٥٥٤).

به كما قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [(١٩٣) سورة الشعراء]، فالقول بأن هذا في الجملة ولا يؤثر على ذلك أن ينزل غيره بآيةٍ أو نحو هذا، فهذا قول غير صحيح.

ومعروف قطعاً أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصلي بمكة، وكان يقرأ الفاتحة، وآية الحجر تدل على نزولها بمكة، فبعض أهل العلم أراد أن يوفق وأن يجمع فقال: نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة، ولا حاجة لمثل هذا.

بل أغرب بعضهم فقال: إن نصفها نزل بمكة، والنصف الآخر نزل بالمدينة، على كل حال هي نازلةٌ بمكة قطعاً.

"**وهي سبع آيات بلا خلاف**" هنا بلا خلاف يعني إلا الأقوال الشاذة، وإلا فقد سبق بالأمس قول من قال: إنها ست آيات بإسقاط البسملة، ووصل: {أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} مع ما بعدها، وقول من قال: إنها ثمان آيات، باعتبار أن البسملة آية، و{أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} آية، بل إن بعضهم عدَّ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} آية، لكن هذه الأقوال شاذة لا يلتفت إليها، والله -عز وجل- قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي} فكيف يقال: إنها تسع أو ثمان أو خمس أو ست؟

"**والبسملة آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة، وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخَلَف**" القول هنا بأن البسملة آية هذا على قولٍ كما ذكر هنا، والخلاف في هذا كثير، وقد سبق الكلام عليه، وتعرفون أن من أهل العلم من يقول: إنها آية مستقلة تأتي للفصل بين السور فقط، أي: يعرف بها الفصل وليست من السورة، وهذا اختيار جمع من الأئمة المحققين، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، ومن أهل العلم من يقول: إنها آية من كل سورة إلا سورة براءة، والخلاف في هذا -كما سبق- يمكن أن يكون عائداً إلى القراءة.

"**قالوا: وكلماتها خمسٌ وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً**" كلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً، تأكدوا من ذلك وعدوا..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٤)

مما يختص بالفاتحة - الاستعاذة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أمَّ الكتاب؛ لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة[١]، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته، قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر -إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع- أُمًّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أُمًّا، قال: وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها، وجمعها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دحيت منها."

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد سبق الكلام على بعض هذه المعاني في سبب تسمية سورة الفاتحة بأم القرآن، وعلى كل حال فتلك تعليلات يلتمسها العلماء في بيان وجه التسمية، ولا يقطع بشيء من ذلك، ولكن لعل أوجه الأقوال هو القول بأنها سميت بهذا؛ لأنها تجمع معانيه، ولا شك أن ما جمع ما تفرق في غيره يقال له ذلك في كلام العرب، سواء كان ذلك في الذوات، أو كان في المعاني، وكذلك التقدم أيضاً فإنه يصح فيه مثل هذا، وعلى كل حال يبقى في القول بأنها سميت بذلك من أجل أنها كتبت في أول المصحف إشكال بناءً على أن ترتيب سور القرآن ليس توقيفياً، والله أعلم.

"روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال في أم القرآن: ((هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم))[٢].

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((هي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني))[٣].

روى الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- في مسنده عن أبي سعيد بن المعلى -رضي الله تعالى عنه- قال: "كنت أصلي فدعاني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلم أجبه حتى صليت، قال: فأتيته فقال: ((ما منعك أن تأتيني؟)) قال: قلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، قال: ((ألم يقل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [(٢٤) سورة الأنفال]))[٤]."

---

[1] - صحيح البخاري (ج ٤ / ص ١٦٢١).

[2] - أخرجه أحمد (٩٧٨٧) (ج ٢ / ص ٤٤٨) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

[3] - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (ج ٢ / ص ٤٥) وفي السنن الصغرى (ج ١ / ص ١٢٤).

[4] - سيأتي تخريجه..

هناك فائدة خارجة عن موطن الاستشهاد من هذا الحديث وهي أن هذا الحديث يستدل به في أصول التفسير، وقواعده على أن الآية قد ترد لمعنى، ولكن تحتمل في ظاهرها وعمومها معانِيَ أخر، وإن لم يكن ذلك المعنى الذي وردت فيه من قبيل سبب النزول، لكنه معنى متبادر، فتحمل على هذه المعاني جميعاً إن لم يوجد معارض، فالذي يدل على هذا من السنة هذا الحديث، فالأصل المتبادر من قوله تعالى: **{اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ}** [(٢٤) سورة الأنفال] أن يستدل بها على أنها تدعو إلى طاعة الله -عز وجل- وعبادته وطاعة رسوله -عليه الصلاة والسلام- وهنا استدل بها النبي -صلى الله عليه وسلم- على أنه إذا ناداك باسمك فإن عمومها يشمل هذا.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **{وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}** [(٥٤) سورة الكهف]، وذلك أنه لما جاء النبي - صلى الله عليه وسلم- لعلي وفاطمة، ووجدهما نائمين، فقال: ((ألا تصليان؟)) فقال علي -رضي الله عنه- : إن أرواحنا بيد الله متى شاء أن يبعثها بعثها، فخرج -عليه الصلاة والسلام- ورجع وهو يلطخ فخذه ويقول: ((وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً))[5] مع أن الآية إنما نزلت لبيان حال جدل الكافر بالبعث.

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى: **{لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ}** [(١٠٨) سورة التوبة]، **{أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ}**، فقد وقع الخلاف بين الرجل الخدري والآخر الذي من بني عمرو بن عوف، فقال العوفي: إنه مسجد قباء، وقال الخدري: إنه مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: إنه مسجدي هذا.

كذلك في قوله صلى الله عليه سلم: ((يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً))، ثم قال: **{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}** [(١٠٤) سورة الأنبياء]))[6].

فالآية سيقت في الاستدلال بالنشأة الأولى على البعث، فالذي خلق الخلق قادرٌ على أن يعيدهم ثانياً، فساقها النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا المقام ليبين أنهم يبعثون كما ولدتهم أمهاتهم، فتعود إليهم أجزاؤهم التي فقدوها فقال: ((غرلاً))، وبين أيضاً أنه لا يكون معهم شيئ من اللباس والنعل، وما أشبه ذلك.

"ثم قال: ((لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد)) قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله، إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: ((نعم، {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)) وهكذا رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه[7].

---

[5] - أخرجه البخاري في أبواب التهجد - باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم على صلاة الليل والنوافل من غير إيجـاب (١٠٧٥) (ج ١ / ص ٣٧٩).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة المائدة (٤٣٤٩) (ج ٤ / ص ١٦٩١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٧٣٨٠) (ج ٨ / ص ١٥٧).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب ما جاء في فاتحة الكتاب (٤٢٠٤) (ج ٤ / ص ١٦٢٣).

روى البخاري في فضائل القرآن عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: "كنا في مسير لنا فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إنّ سيد الحي سليم، وإنّ نفَرَنا غيب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبناً".

إن سيد الحي سليم: تعني أنه لديغ، وسمي اللديغ سليماً من باب التفاؤل، كما يسمون الأرض البيداء مفازة.

ما كنا نأبنه برقية: يعني ما كنَّا نعرفه برقية.

"فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية أو كنت ترقي؟ فقال: لا، ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي ونسأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((وما كان يدريه أنها رقية، اقسموا لي واضربوا لي بسهم))[8]".

قوله: **((وما كان يدريه أنها رقية))** هذا الأقرب فيه أنه من أوصاف سورة الفاتحة وليس من أسمائها فهي توصف بأنها رقية يرقى بها، وهذا يدل على أن الرقية لا يشترط لها شخص معين يتجشم الناس الذهاب إليه، ويجتمعون عنده كما هو حاصل الآن، فمثل هذا غير صحيح، وإنما يمكن لكل أحد أن يرقي بفاتحة الكتاب.

"روى مسلم في صحيحه والنسائي في سننه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: "بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعنده جبرائيل -عليه السلام- إذ سمع نقيضاً فوقه"."

قوله: **إذ سمع نقيضاً فوقه**، يعني أنه سمع مثل صوت الباب إذا فُتح.

"فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: ((هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط))، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: "أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته" وهذا لفظ النسائي ولمسلم نحوه[9]".

البشارة هنا لا تعني أنه نزل بسورة الفاتحة في تلك اللحظة وإنما نزلت سورة الفاتحة قبلُ في مكة، وهذا الحدث كان في المدينة.

"روى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج ثلاثاً غير تمام)) فقيل لأبي هريرة: إنا نكون خلف الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((قال الله -عز وجل-: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله: مجدني عبدي -وقال مرة-: فوض إليَّ عبدي..))".

هذا الحديث جاء به هنا لبيان فضل سورة الفاتحة، وأخذ من هذا الحديث أيضاً تسمية سورة الفاتحة بسورة الصلاة وهذا من قوله: **((قسمت الصلاة..))**.

---

8 - أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن - باب فضل فاتحة الكتاب (٤٧٢١) (ج ٤ / ص ١٩١٣).

9 - أخرجه البخاري في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة (٨٠٦) (ج ١ / ص ٥٥٤) والنسائي واللفظ له في كتاب صفة الصلاة - باب فضل فاتحة الكتاب (٩١٢) (ج ٢ / ص ١٣٨).

ويمكن أن يستدل بهذا على أن البسملة ليست آية منها؛ لأنه على هذا لا تكون منقسمة على نصفين، كما يفهم من هذا الحديث أن معنى الحمد غير معنى الثناء، فالحمد هو إضافة المحامد وصفات الكمال إلى المحمود، والثناء هو إعادة الحمد ثانياً أي تكرره وتثنيه من التثنية.

"((فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل))."

أي أن قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} يكون لله -عز وجل- حيث يتوجه المكلف إلى الله -عز وجل- بأعماله له سبحانه ويتقرب إليه، وقوله: {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] أي أنه يطلب منه العون.

"((فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)) **وهكذا رواه النسائي**[١٠].

وفي لفظٍ عند مسلم والنسائي: ((فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل))[١١] **وهو أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة والمراد القراءة، كقوله تعالى: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً} [(١١٠) سورة الإسراء].**"

قوله: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ} أي بقراءتك، والمراد به قراءة الفاتحة على وجه الخصوص، فالصلاة والعبادة قد تسمى بجزئها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الحج عرفة))[١٢] فدل ذلك على أنه ركنٌ فيها، والقاعدة في هذا الباب هي أنه إذا سميت العبادة بجزئها فإن ذلك يدل على أنه ركنٌ فيها، أو أنها لا تصح بدونه، ففي قوله -تبارك وتعالى-: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [(٧٨) سورة الإسراء]، يدل هذا على ركنية القراءة في الصلاة؛ لأن تسمية العبادة بجزءٍ منها يدل على أنه ركنٌ فيها.

"**كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وهكذا قال في هذا الحديث: ((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل))، ثم بيّن تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها**".

هذا يدل أيضاً على أن إطلاق العبادة على جزءٍ منها يجعله من أركانها، فسورة الفاتحة ليس من أسمائها الصلاة، وإنما أطلقت الصلاة على جزءٍ منها وهي الفاتحة فصدق عليها أن تكون ركناً في الصلاة.

"**إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزءٌ واحد منها وهو القراءة، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [(٧٨) سورة الإسراء]، والمراد صلاة الفجر، كما جاء**

---

[10] – أخرجه مسلم في كتاب الصلاة – باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٩٠٤) (ج ٢ / ص ١٠)، والنسائي في كتاب صفة الصلاة – باب ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب (٩٠٩) (ج ٢ / ص ١٣٥).

[11] – صحيح مسلم في كتاب الصلاة – باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٩٠٦) (ج ٢ / ص ٩)، والنسائي في كتاب صفة الصلاة – باب ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب (٩٠٩) (ج ٢ / ص ١٣٥).

[12] – أخرجه أبو داود في كتاب المناسك – باب مَنْ لَمْ يُدْرِكْ عَرَفَةَ (١٩٥١) (ج ٢ / ص ١٤١) والترمذي في كتاب الحج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٨٩) (ج ٣ / ص ٢٣٧) والنسائي في كتاب مناسك الحج – باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة (٣٠٤٤) (ج ٥ / ص ٢٦٤) وابن ماجه في كتاب المناسك – باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع (٣٠١٥) (ج ٢ / ص ١٠٠٣) وصححه العلامة الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢٧١٤).

مصرحاً به في الصحيحين إنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لابد من القراءة في الصلاة وهو اتفاق من العلماء.

وقد دل عليه الحديث المذكور حيث قال -صلوات الله وسلامه عليه-: ((من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج))[١٣] والخداج: هو الناقص، كما فسر به في الحديث: غير تمام.

وأيضاً قد ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))[١٤] وفي صحيحي ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن))"[١٥].

على كل حال فإن البحث في حكم قراءة الفاتحة في الصلاة مما يذكر في الفقه، لكن ذكره ابن كثير هنا، ومعلوم أن من منهجه -رحمه الله- أنه يشير إلى الأحكام الفقهية في هذا التفسير، فهو -رحمه الله- يفسر القرآن بالقرآن، ويفسر القرآن بالسنة وبالآثار، وكذلك أيضاً يذكر الأحكام لكنه لا يستطرد ولا يتوسع فيها كما يفعل بعض من عني بمسائل الأحكام كالقرطبي -رحمه الله- في تفسيره، والشنقيطي في "أضواء البيان"، وأمثالهما، وأما ابن كثير فلا يتوسع لكنه يشير إلى الأحكام في هذا التفسير إشارة.

وقراءة سورة الفاتحة في الصلاة أظن أنها ركن لا تسقط لا خلف الإمام ولا في حال الانفراد، ولا بحالٍ من الأحوال، فيجب على الإنسان أن يقرأها، اللهم إلا إن جاء والإمام راكع أو يهم بالركوع أو نحو هذا، فمثل هذا دل عليه حديث أبي بكرة لما جاء وركع دون الصف، فدل على أن ذلك يسقط لفوات محله، وتحتسب له هذه الركعة، وهذه مسألة فيها خلاف مشهور وكثير فيما إذا كان خلف الإمام في الصلاة الجهرية، لكن ظواهر الأدلة تدل على أنه يقرأ بفاتحة الكتاب، ولا يترك ذلك، فإن كان للإمام سكتات قرأ في سكتاته، وإن لم يكن له سكتات قرأ أثناء قراءته قراءة يسرع فيها حتى ينهي الفاتحة امتثالاً لأمر الله -عز وجل-.

وهذه المسألة من المسائل التي لا يمكن فيها الخروج من الخلاف، لكن ينبغي العمل بالأحوط؛ لأنه إن قرأ فعند الآخرين أنه عاصٍ لله؛ لأن الله يقول: **{فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ}** [(٢٠٤) سورة الأعراف]، وعند من يقول بأنه يجب عليه أن يقرأ ويستدلون بمثل هذه الأحاديث، إذا ترك القراءة يقولون: لا تصح صلاته، فهو على هذا عند هؤلاء يأثم، وعند هؤلاء صلاته باطلة، لكن من اجتهد فأداه اجتهاده إلى أنها لا تقرأ خلف الإمام، أو سأل عالماً فأفتاه بهذا فلا يقال ببطلان صلاته بحالٍ من الأحوال، بل صلاته صحيحة، والله -عز وجل- لا يكلفه بأكثر من هذا، وهذا من لطف الله -عز وجل-.

---

13 - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٥) (ج ١ / ص ٢٩٦).

14 - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (٧٢٣) (ج ١ / ص ٢٦٣) ومسلم في كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٤) (ج ١ / ص ٢٩٥).

15 - أخرجه ابن حبان (ج ٥ / ص ٩١) وابن خزيمة (ج ١ / ص ٢٤٨) وعدّه الألباني من الأحاديث الصحيحة كما في حاشية كتابه "أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم".

ولذلك فالمسائل المختلف فيها مما يقْوى فيها الخلاف أو يخفَى مأخذ المسألة فإنها تعد من المسائل الاجتهادية وإن وردت فيها الأدلة الصريحة مثل هذه المسألة، فالأدلة واضحة وصريحة لكنها متقابلة، فهذا التقابل صيّرها من مسائل الاجتهاد وليست من المسائل المقطوع بها، والله تعالى أعلم.

والله -عز وجل- في مثل هذه المسائل لم يجعلها مما يترتب عليها النجاة، فالمسائل التي تترتب عليها النجاة بيّنها الله وحسمها، مثل وجوب الصلاة، ووجوب الصيام والحج وما أشبه هذا، وأما باقي التفاصيل التي تحتها فهذه لا تتوقف عليها النجاة، بل يجتهد فيها العلماء ويختلفون.

"والأحاديث في هذا الباب كثيرة، فعلى المصلي أن يقرأ فاتحة الكتاب إماماً كان أو مأموماً أو منفرداً في جميع الصلوات وفي كل ركعة ولا بد.

قال الله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ* وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(١٩٩-٢٠٠) سورة الأعراف]، **وقال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ* وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ}** [(٩٦-٩٨) سورة المؤمنون]، **وقال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ* وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [(٣٤-٣٦) سورة فصلت]، **فهذه ثلاث آيات ليس لهنَّ رابعة في معناها..".**

هذه من اللطائف التي في تفسير ابن كثير، فهذا التفسير يشتمل على لفتات ولطائف جميلة لو أن الواحد دوَّنها مع الأشياء الأخرى التي تمر به من قواعد التفسير، والقواعد التي تتعلق بالأحكام، فإنه ستجتمع عنده مجموعة من تلك الفوائد واللطائف والأحكام قد تصل إلى أن تكون بحثاً مستقلاً، فالقواعد التي في تفسير ابن كثير تصل إلى سبعين صفحة إذا كان مختصراً.

"فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعةٌ في معناها، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليردَّه عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم؛ لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم".

يعني دائماً مع العدو الإنسي **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** كما في هذه الآيات الثلاث، وأما العدو من الجن فليس فيه حيلة، فإنك إن تحسن إليه فليس لذلك معنى ولا فائدة، وإنما يزداد شراً وعتواً، بل لا تستطيع الوصول إليه أصلاً حتى تحسن إليه، ولذلك فهو إنما يدفع بالاستعاذة.

"لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ} [(٢٧) سورة الأعراف]، **وقال تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}** [(٦) سورة فاطر]".

الإنسان قد يبتلى بأضدادٍ وخصوم، وهؤلاء الأضداد والخصوم يتسلطون عليه إما بسبب زلةٍ زلها أو سقطةٍ وقعت منه، أو ذنب أذنبه فيقابله هؤلاء الأضداد والخصوم إما بإساءة فحسب وإما بعداوة.

وتارةً يكون تسلطهم عليه من غير كسبٍ منه ولا إساءة لكنهم أعداء للمروءة، وأعداء لأهل الفضل، فإذا رأوا أحداً قد ميزه الله -عز وجل- وأعطاه وأفضل عليه، تحركت نفوسهم وعادوه، وطلبوا كل سبيل يوصلون

الأذى فيه إليه، وهؤلاء إمامهم إبليس، فآدم –عليه السلام– لم يصنع به شيئاً أصلاً، ومع ذلك أبرم هذه العداوة وتوعد ذريته: {قَالَ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ} [(٦٢) سورة الإسراء] حتى إنك تجد العبارات التي توعد بها عبارات قوية، فقوله: {لأَحْتَنِكَنَّ} هو توعد على أعلى المستويات مع أن آدم لم يصنع شيئاً به لكنها بلوى.

والمقصود أن العداوة إن صدرت من شياطين الجن فعلاج ذلك الاستعاذة، وإن كانت صادرة من شياطين الإنس فالبعد والسلامة، فهذه العداوة هي مثل النار التي في الهشيم لا تبقي ولا تذر، فالبعد عنها هو العافية.

"وقال: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [(٥٠) سورة الكهف]، وقد أقسم للوالد آدم –عليه السلام– أنه له لمن الناصحين وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [(٨٣) سورة ص].

وقال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ} [(٩٨-١٠٠) سورة النحل].

ومعنى قوله: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [(٩٨) سورة النحل]، أي إذا أردت القراءة كقوله تعالى: {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ..} [(٦) سورة المائدة] الآية".

هذا من تفسير القرآن بالقرآن، بمعنى أننا إذا أخذنا بظاهر اللفظ مجرداً {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ} نجد أن قرأت فعل ماضي، يعني إذا فرغت من القراءة، وهكذا ربما يفهم السامع، وهكذا فهم بعضهم، فقال: إن الاستعاذة تكون بعد الفراغ من التلاوة، فهذا قاله بعض أهل العلم، لكنه قولٌ شاذ، وهذه الآية {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ} لا شك أن معناها إذا أردتم القيام، إذ لا يكون الوضوء بعد الفراغ من الصلاة قطعاً؛ لأنه لا تصح الصلاة إلا بوضوء، وكذلك فعل النبي –صلى الله عليه وسلم– يفسر الآية، حيث كان يستعيذ قبل القراءة، ولذلك لجأ بعض أهل العلم للجمع بين هذا وبين ما فهموا من الظاهر فقالوا: إن الاستعاذة تكون في أول القراءة وبعد الفراغ منها؛ باعتبار أن الاستعاذة في البداية تكون امتثالاً ولطرد الشيطان عنه فلا يشغل بوساوسه، وبعد الفراغ من أجل ألا يحصل له عجبٌ والتفات إلى العمل وغرور وتعاظم بعد هذا العمل الطيب الذي تعبد الله –عز وجل– به، إلا أن هذا القول غير صحيح، فالاستعاذة إنما تكون في أول القراءة.

"أي إذا أردتم القيام، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بذلك، روى الإمام أحمد بن حنبل –رحمه الله– عن أبي سعيد الخدري –رضي الله تعالى عنه– قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: ((سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك)) ثم يقول: ((لا إله إلا الله)) ثلاثاً، ثم يقول: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه))[١٦] رواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي هو أشهر شيء في هذا الباب".

هذا يدل على أن الاستعاذة تكون قبل القراءة، وفي الصلاة تقال في الركعة الأولى قبل قراءة الفاتحة ولا تردد في كل ركعة، كما أنها لا تقال قبل قراءة السورة التي بعد الفاتحة.

---

[16] – أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة – باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٥) (ج ١ / ص ٢٨١) والترمذي في أبواب الصلاة – باب ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢٤٢) (ج ٢ / ص ٩) والدارمي (١٢٣٩) (ج ١ / ص ٣١٠) وأحمد (١١٤٩١) (ج ٣ / ص ٥٠) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٢١٧).

ومن هذا الحديث يستفاد أن من الصيغ المشروعة في الاستعاذة أن تقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه، وهكذا السنة تفسر القرآن، فالله -عز وجل- أمر بالاستعاذة بقوله: **{فَاسْتَعِذْ}**، وبعض أهل العلم فهم من ذلك الإطلاق، وأن المقصود أن يستعيذ، فإذا قال الإنسان مثلاً: استعذت من الشيطان الرجيم، أو استعذت بالله من الشيطان، وهكذا استحسن بعضهم صيغاً من عند أنفسهم وقالوا هكذا يستعيذ المرء بالله من الشيطان الرجيم، وهذا كلام غير صحيح، فالله أمر بالاستعاذة كما أمر بالصلاة وكما أمر بالحج، والنبي -صلى الله عليه وسلم- علمنا كيف نصلي، وكذلك علمنا كيف نستعيذ، فنقول كما قال: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه)) وهذه أكمل صيغ الاستعاذة، ولها صيغ أخرى صحت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

والهمز هو الخنق، فالشيطان يخنق ويصرع، كما قال الله -عز وجل-: **{كَالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}** [(٢٧٥) سورة البقرة] أي: يخنقه فيصرعه، والنفخ يعني الكبر والتعاظم، والنفث يعني الشعر أو السحر.

"وقد فسر الهمزة بالموتة وهي الخنق، والنفخ بالكبر، والنفث بالشعر".

المقصود بالنفث الشعر السيء الذي يمدح الإنسان فيه بالباطل على سبيل التملق كما قال تعالى: **{وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}** [(٢٢٤) سورة الشعراء]، وقد قيل: لا تصاحب شاعراً، فإنه يمدحك بالثمن ويهجوك مجاناً، أي أنه إذا رأى منك ما رأى تولاك بالهجاء من غير أن تدفع له ثمناً، ولكنه لا يمدحك إلا وهو يرتقب منك العوض، والمقصود بهؤلاء الشعراء هم الشعراء القدامى أما الآن فقد مات الشعر وتركه الناس وصار الشاعر إذا مدح وهجا لا يلتفت إليه ولا يعبأ به ولا يقرأ شعره، أما في الماضي فقد كانت القصيدة هي لسان البيان.

"كما رواه أبو داود وابن ماجه عن جبير المطعم عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين دخل في الصلاة قال: ((الله أكبر كبيراً -ثلاثاً- الحمد لله كثيراً -ثلاثاً- سبحان الله بكرة وأصيلاً -ثلاثاً- اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه))، قال عمرو: همزه الموتة، ونفخه الكبر، ونفثه الشعر[١٧].

وقال ابن ماجه: حدثنا علي بن المنذر قال حدثنا ابن فضيل قال حدثنا عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه))[١٨] قال: همزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر".

هذه من صيغ الاستعاذة، ومن الصيغ كما سبق: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وكذلك قول الإنسان: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وله أن يتخير من هذه الصيغ ما شاء.

---

[17] - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٦٤) (ج ١ / ص ٢٧٩) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب الاستعاذة في الصلاة (٨٠٧) (ج ١ / ص ٢٦٥) وضعفه الألباني في المشكاة برقم (٨١٧).

[18] - أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب الاستعاذة في الصلاة (٨٠٨) (ج ١ / ص ٢٦٦) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (ج ٢ / ص ٣٨٠).

ولا يقال: إن قوله: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه)) يختص بصلاة الليل، وإنما هي صيغة من صيغ الاستعاذة، وإذا اختار الإنسان الصيغة الأكمل فلا شك أن ذلك أكمل، وإذا نوَّع تارة بهذا وتارة بهذا فهو حسن أيضاً.

"وروى الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده عن أبي بن كعب -رضي الله تعالى عنه- قال: تلاحى رجلان عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فتمزع أنف أحدهما غضباً، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعلم شيئاً لو قاله لذهب عنه ما يجد، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)) وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة[١٩].

وروى البخاري عن سليمان بن صُرَد -رضي الله تعالى عنه- قال: استب رجلان عند النبي -صلى الله عليه وسلم- ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم))، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: "إني لست بمجنون" وقد رواه أيضاً مع مسلم وأبي داود والنسائي[٢٠].

وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها هاهنا وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال والله أعلم.

وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة يأثم تاركها، وحكى الرازي عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة، واحتج الرازي لعطاء بظاهر الآية: {فَاسْتَعِذْ} وهو أمر ظاهره الوجوب، وبمواظبة النبي -صلى الله عليه وسلم- عليها، ولأنها تدرأ شر الشيطان، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط، فإذا قال المستعيذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك".

قوله: **فإذا قال المستعيذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك**، يعني يكون قد تحقق المطلوب.

قوله تعالى: **{فَاسْتَعِذْ}** جاء بصيغة الأمر، والأصل أن الأمر للوجوب، فاستدل القائلون بوجوب الاستعاذة عند قراءة القرآن بدليلين من المنقول ودليلين من النظر إلا أن الأخير منهما ليس دليلاً ولكنه مما يندب إليه المكلف، وهو العمل بالأحوط، والعمل بالأحوط يندب إليه في الأحوال التي تحتمل ذلك وليس في كل قضية يندب إليه، فهناك قضايا لا يتأتى فيها العمل بالأحوط.

والمقصود أن أدلة القائلين بوجوب الاستعاذة من القرآن قوله تعالى: **{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}** [(٩٨) سورة النحل] وذلك أنه جاء بصيغة الأمر، ومن أدلة ذلك من السنة مواظبة النبي -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، واستدل على ذلك من النظر بأن ذلك يدرأ شر الشيطان، والعبد بحاجة إلى هذا بين يدي القراءة.

---

19 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ج ٧ / ص ٩٤) وفي مسنده (ج ٢ / ص ٣٥٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة (ج ٦ / ص ١٠٤) وأصله في البخاري كما سيأتي.

20 - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب الحذر من الغضب (٥٧٦٤) (ج ٥ / ص ٢٢٦٧).

وعلى كل حال فالقول بوجوب الاستعاذة عند كل قراءة فيه إشكال، وذلك أنه إما أن يقال: إنه يوجد صارف وهو أنه لم ينقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في صفة صلاته في كل الأحوال أنه استعاذ، وإما أن يقال:إن خطب النبي -صلى الله عليه وسلم- المنقولة عنه لم يرد فيها أنه كان يستعيذ إذا أراد أن يستشهد بآية أو آيات، وإما أن يقال: قد لا يوجد له صارف معلوم لدينا، وهذا باعتبار أن القواعد أغلبية، ويكون هذا من الأمثلة على نوع العبادات التي جاء الأمر فيها صراحةً ولكنه لا يحمل على الوجوب مع عدم وجود الصارف الظاهر، فالقواعد أغلبية بمعنى أنه إذا قيل: الأمر للوجوب فهذا يكفي أن يصدق على ثمانين في المائة أو خمسة وسبعين في المائة أو تسعين في المائة من الأمثلة، ويبقى قسم منها لا يعلم له صارف ومع ذلك لا يحمل على الوجوب.

"ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث".

هذه من لطائف هذا التفسير، فالطهارة للبدن تكون بالماء وضوءاً وغسلاً أو بما يقوم مقامه كالتيمم، فالإنسان يتهيأ للصلاة ويتهيأ للقراءة فيكون متوضئاً حتى تحصل له هذه الطهارة، فهذه طهارة حسية، ويشرع له إذا أراد القراءة أن يجمع بين الطهارة الحسية والطهارة المعنوية وذلك بالاستعاذة، فهو كما يطهر بدنه بالغسل أو بالوضوء تهيؤاً للصلاة مثلاً، فكذلك يتهيأ للقراءة بطهارةٍ معنوية هي تطهير الفم من اللغو وما أشبه ذلك، والتنزه من الشيطان وملابسته، ووسوسته وما أشبه ذلك.

"وهو لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان، كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً} [(٦٥) سورة الإسراء].

وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطني كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطني كان مفتوناً أو موزوراً، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان".

هذه الجملة من كلام ابن كثير فيها ثلاث لطائف:

الأولى: أن يجمع الإنسان بين الطهارة بالماء وطهارة الفم من اللغو، والتطهر المعنوي أيضاً بالتباعد عن الشيطان بهذه الاستعاذة.

الثانية: أن هذا يتضمن الاعتراف بالعجز عن دفع الشيطان، وأن المصانعة للشيطان لا حيلة للعبد فيها إلا أن يستعيذ منه.

الثالثة: أنه ذكر الفرق بين العدو الإنسي والعدو الجني، وأن الذي يغلبه عدوه من شياطين الجن يكون طريداً بخلاف ما إذا غلبه عدوه من الإنس، فالأول يكون فاجراً ضالاً بعيداً عن هدى الله -عز وجل-، قد تمكن منه الشيطان واستحوذ عليه، وأما الثاني فهو مأجور إذا غلبه عدوه من الإنس.

ويتصل بهذه اللطيفة ما ذكره هنا من كون الشيطان يرى الإنسان ولا يراه، فحيلة الإنسان أن يستعيذ منه بالله الذي يرى الشيطان ولا يراه.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٥)

الاستعاذة والبسملة

الشيخ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير الاستعاذة: "والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجانبه من شر كل ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمعنى الاستعاذة أي طلب العوذ؛ لأن السين والتاء للطلب، تقول: الاستغفار يعني طلب المغفرة، وتقول: الاستعطاف يعني طلب العطف، والاستعاذة أي طلب العوذ، والعوذ يأتي بمعنى الإجارة أن يمنعك وأن يعصمك وأن يجيرك من الشيطان الرجيم.

وبعض أهل العلم كما أشار الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يفرق بين العوذ واللوذ، فيقول: العوذ هو طلب الإجارة من المكاره، واللوذ هو الالتجاء لأجل تحصيل المطلوبات والمحبوبات، ويذكرون في هذا قول الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

وبعض أهل العلم يقول: العوذ يكون في هذا وفي هذا، قد يكون الغالب في الاستعمال والمتبادر عند الإطلاق في الاستعاذة أنها طلب العوذ بالإجارة من المكاره، أي مما يخافه الإنسان ويطلب الخلاص منه، والله أعلم.

"ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن؛ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرِّير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه.

وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله في الأعراف: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [(١٩٩) سورة الأعراف]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٢٠٠) سورة الأعراف] وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ* وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ} [(٩٦-٩٨) سورة المؤمنون] وقال تعالى في سورة حم السجدة: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّاهَا

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ* وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(٣٤-٣٦) سورة فصلت]".

هذه فائدة كان قد ذكرها قبلُ وهي في كيفية التعامل مع شياطين الإنس، والتعامل مع شياطين الجن، وهي من اللطائف التي في هذا الكتاب.

"الشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط؛ لأنه مخلوق من نار".

هذا الشيطان الذي نستعيذ منه المشهور أن مادته مشتقة من شطن كما ذكر أولاً، تقول شطن بمعنى بعد، وتقول شطنت البئر بمعنى أنها بعد قعرها حتى لا تصلها الدلاء، وتقول: شطنت ديار زيد، بمعنى بعدت.

وقال الشاعر:

نأتْ بسعاد عنك نوىً شطون ... فبانت والفؤاد بها حزين

فقوله: نأتْ بسعاد عنك نوىً شطون يعني صارت ديارها بعيدة لا يوصل إليها إلا بمشقة.

وقيل: للشيطان ذلك لأنه بعيدٌ عن الخير وعن طاعة الله -عز وجل-، وبعيد عن الإيمان والهدى وكل معروف، وبعيد عن رحمة الله -عز وجل-، فكل ألوان البعد هو موصوفٌ بها، وهذا المعنى الأول هو المشهور عند العلماء وهو أنه مأخوذٌ من شطن.

والمعنى الثاني الذي ذكره هنا هو أنه مأخوذ من شاط يشيط فهو شيطان، واللفظة دالة على الامتلاء عموماً، تقول: غضبان على وزن فعلان، وظمآن وعطشان وجوعان، وما إلى ذلك من الألفاظ التي تدل على الامتلاء.

فإذا قيل: إنه من شاط يشيط، بمعنى عتا وتمرد، فازداد عتوه وتمرده، وخروجه عن طاعة الله -عز وجل-، وإفساده للخلق بما يلقيه إليهم من الوساوس، ويزين لهم من الشرور، تقول: استشاط فلانٌ غضباً، أي امتلأ غضباً وبلغ به الغضب مبلغه، وتقول: اشتط فلان في هذا الأمر.

وهذا المعنى الثاني -شاط يشيط- يطلق عند العرب على كل عاتٍ متمردٍ سواء من الإنس أو من الجن، ومنه البيت المشهور المعروف:

أيام يدعونني الشيطان من غضبٍ ... وكنّ يهوينني إذ كنت شيطانا

أي يوم أن كان عاتياً متمرداً في أيام شبابه.

وقال الشاعر يمدح سليمان -عليه الصلاة والسلام-:

أيما شاطنٍ عصاه عكاه ... ثم يلقى في السجن والأكبال

"وقيل مشتق من شاط؛ لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى ولكن الأول أصح، وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فعل فِعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا: تشيَّط".

هذا الكلام من سيبويه -رحمه الله- تعليل لماذا كان الأول أصح من جهة تصريف الكلمة، فيقول: **العرب تقول: تشيطن إذا فعل فِعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا: تشيط"**، فيقال: شاط فهو متشيط، لكن شطن فهو شاطن، وشيطان للمبالغة والدلالة على الامتلاء كما سبق معنا.

"فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح، ولهذا يسمون كل من تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطاناً، قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام].

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن))، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: ((نعم))[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- أيضاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقطع الصلاةَ المرأةُ والحمار والكلب الأسود))، فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: ((الكلب الأسود شيطان))[2].

وروى ابن جرير أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- ركب بِرْذَوْناً فجعل يتبختر به فجعل يضربه، فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه وقال: "ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي"[3] [إسناده صحيح]".

إذا قال الإنسان: أعوذ بالله من الشيطان، فـ "أل" هذه هل هي للعهد، فأنت تستعيذ بالله من الشيطان المعهود الذي هو إبليس مثلاً، أم أنها للجنس بمعنى أنك إذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان أي من كل شيطان؟

يحتمل هذا وهذا، فبعض أهل العلم يقول: هي للجنس، فأنت تستعيذ بالله من كل الشياطين، ومعلومٌ أن الذي يوسوس ليس هو إبليس فقط، وإنما إبليس وجنوده، أعوذ بالله من الشيطان أي من كل شيطان.

"والرجيم فعيل بمعنى مفعول، أي أنه مرجوم مطرود عن الخير كله".

باعتبار أن رجيم مصدر، فأصل المادة إذا أرجعناها إلى الفعل من رجم، وتقول: رجماً فهو رجيم، والمصدر يطلق ويراد به الفاعل تارةً، ويراد به المفعول تارةً أخرى، وبهذا فإن لفظة رجيم يمكن أن تكون بمعنى مرجوم، والمعنى الذي ذكره هنا فعيل بمعنى مفعول، يعني مرجوم، فإن شئت فقل: هو مرجومٌ بالشهب، كما قال تعالى: **{وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ* دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ* إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}** [(٨-١٠) سورة الصافات].

والله -عز وجل- أخبر عن النجوم أنه جعلها رجوماً للشياطين، فالشيطان يرجم بالشهب، ويرجم أيضاً بالذم والسب واللعن وما أشبه ذلك من كل قبيح يوصف به ويضاف إليه، وأيضاً هو مرجوم بمعنى مبعد ومطرود عن رحمة الله -عز وجل-.

وقد يكون بمعنى فاعل، أي رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرجُم الناس بالوساوس والخواطر السيئة ويرجمهم بما يزين لهم من المنكر والباطل، لكن المعنى الأول هو المشهور، ولو قال قائل: إنه يحمل على المعنيين جميعاً فليس ذلك ببعيد والله أعلم، فهو مرجوم بالاعتبار الأول وهو راجمٌ بالاعتبار الثاني، والقرآن يعبر به بالألفاظ

---

[1] - أخرجه أحمد (٢١٥٩٢) (ج ٥ / ص ١٧٩) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب قدر ما يستر المصلي (٥١٠) (ج ١ / ص ٣٦٥).

[3] - انظر تفسير الطبري (ج ١ / ص ١١١).

القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والقاعدة أن اللفظ إذا احتمل معنيين فأكثر من غير ممانعة من حمله على أحدها فإنه يحمل على الجميع والله أعلم.

"والرجيم فعيل بمعنى مفعول، أي أنه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ} [(٥) سورة الملك] **وقال تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ* وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ* لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ* دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ* إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}** [(٦-١٠) سورة الصافات].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ* وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ* إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} [(١٦-١٨) سورة الحجر] **إلى غير ذلك من الآيات وقيل: رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والربائث، والأول أشهر وأصح.**

{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [(١) سورة الفاتحة] **افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أولها، أو أنها بعض آية من كل سورة".**

المذاهب التي أشار إليها هي:

الأول: أنها أول آية من كل سورة -إضافة إلى كونها بعض آية من سورة النمل- سوى سورة براءة.

الثاني: أنها ليست آية من كل سورة وإنما تكون في بداية كل سورة لا على أنها من آيات السورة وإنما تكون للفصل بين السور.

وبعضهم يقول: هي آيةٌ من سورة الفاتحة فحسب، وبعضهم يقول: لا هذا ولا هذا، أي أنها ليست آية مستقلةً أصلاً، لا للفصل بين السور ولا من الفاتحة، وليست بآية من كل سورة، وإنما هي بعض آية من سورة النمل التي قال الله فيها: **{إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}** [(٣٠) سورة النمل].

والبحث في هذا طويل ومعروف ومشهور، ومن طلبه وجده في الكتب المطولة، وهناك مصنفات خاصة بالبسملة مستقلة، وبعضها مخطوط، وتجدون هذا في كتب التفسير، لا سيما كتب أحكام القرآن، وبعضهم يطيل فيه جداً، وتجدونه في شروح الحديث والفقه، فالمسألة ليست خفية على أحد وإنما هي من المسائل المشهورة، والخلاف فيها كبير وكثير ومشهور، ومذاهب الأئمة فيها معروفة، وإن كانت هذه المذاهب تحتاج إلى تحرير سواء فيها أو في غيرها من كثير من المسائل، إلا أن هذه المسألة من أبرز المسائل التي إذا نظرت فيها عرفت أن هذه المذاهب لا ينبغي أن تؤخذ إلا من كتب أصحابها، وإلا فإنك تجد أشياء تنسب إلى الأئمة لم يقولوا بها في مثل هذه المسألة وفي غيرها وذلك إذا أخذت ذلك من الكتب الأخرى.

وأما المنقول عن الصحابة والتابعين فهو يحتاج أيضاً إلى تحرير وإلى مراجعة في صحته وثبوته، ذلك أنه من أعجب الأشياء المنتشرة أنك تجد المسألة ينسب فيها أحد الأقوال إلى الخلفاء الأربعة وينسب القول الآخر الذي يخالفه تماماً إلى الخلفاء الأربعة كذلك!

فالحاصل أن هذه المسألة نموذج على ما ذكرت من شدة الحاجة إلى التحقق من نسبة الأقوال إلى قائليها، سواء من الصحابة أو من غيرهم ممن جاء بعدهم من أصحاب المذاهب أو غيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

"وممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي --رضي الله تعالى عنهم-.

ومن التابعين: عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام -رحمهم الله-".

هذا هو القول الأول، وهو أنها آية من كل سورة إلا براءة، أي أنها معدودة من كل سورة وليست للفصل بين السور.

وهؤلاء يستدلون بأدلة، لكن ليس هنا مقام ذكر الأدلة والجواب عنها وإلا فلن ننتهي، لكن من أشهر أدلتهم حديث أنس في سورة الكوثر: "بينما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءةً، ثم أفاق وهو يضحك، فقال: ((أنزلت علي آنفاً سورة، ثم قرأ: **{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}** [(١) سورة الكوثر]))[4].

وكذلك ما جاء في وصف قراءته -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أم سلمة[5]، وكذلك في حديث أنس من أن قراءته -صلى الله عليه وسلم- كانت مداً يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم[6].

هذه من أدلتهم الصحيحة الثابتة لكنها ليست صريحة في الدلالة على أن البسملة آية من كل سورة، فحديث أنس في سورة الكوثر مثلاً يبين أنه قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- البسملة كما نبسمل في أوائل السور، فقد تكون مستقلةً تقال بين يدي قراءة السورة للفصل بين السور، فالمقصود أن هذا الدليل ليس بقاطع على أن البسملة آية من كل سورة، بل يوجد ما يدل على خلاف ذلك، فسورة **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [(١) سورة الإخلاص] يقول العلماء: إنها بالإجماع أربع آيات من غير البسملة، وسورة الكوثر يقولون بالإجماع: إنها ثلاث آيات، فالبسملة تكون رابعة على هذا، ويقولون: إنها أقصر سورة، والإعجاز يتحقق بأقصر سورة هي ثلاث آيات.

ثم إن أثر ابن عباس الثابت عنه صريح في أنها ليست آية في كل سورة حيث قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم[7].

وأصرح من هذا كله قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في سورة تبارك: ((إن سورةً ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتى غفر له))[8] وسورة تبارك ثلاثون آية من غير البسملة.

ومما يدل على أنها ليست آية في كل سورة ما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من حديث أبي هريرة أنه كان يفتتح القراءة بـــ**{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [(٢) سورة الفاتحة][9].

---

4 - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (٤٠٠) (ج ١ / ص ٤٠٠).

5 - سيأتي تخريجه.

6 - أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن - باب مد القراءة (٤٧٥٩) (ج ٤ / ص ١٩٢٥).

7 - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب من جهر بالبسملة (٧٨٨) (ج ١ / ص ٢٨٨).

8 - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب - باب ثواب القرآن (٣٧٨٦) (ج ٢ / ص ١٢٤٤) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢١٥٣)..

9 - أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب افتتاح القراءة (٨١٤) (ج ١ / ص ٢٦٧) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٨١٤).

فالمقصود أن هذه الأدلة وغيرها تدل على أن ما فهمه أصحاب هذا القول من مثل حديث أنس لما قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- سورة الكوثر، وقرأ البسملة أن هذا الفهم ليس بقاطع أنها منها أبداً، كما أنه توجد أدلة أخرى يفهم منها خلاف ذلك، وإنما غاية ما في الأمر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ البسملة عند قراءته لسورة الكوثر، ولا يلزم أنه قرأها بناءً على أنها الآية الأولى من سورة الكوثر إطلاقاً، وعلى كل حال هذا هو القول الأول.

"**وقال مالكٌ وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور**".

مالك وأبو حنيفة يقولان: ليست البسملة آيةً من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وهذا يضيفونه إلى طائفة كثيرةٍ من القُرَّاء، من قراء مكة والمدينة والشام، وهو منسوب إلى الأوزاعي ورواية عن الإمام أحمد -رحمه الله-، ويقولون: إنها ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها مع إقرارهم أنها جزء من آية من سورة النمل.

ويلاحظ أن هذا قول لطائفة من القراء، كما أن القول الأول أيضاً منسوب إلى طائفة من القراء، ولذلك فإن مثل هذا أظنه يرجع إلى القراءة فهي ثابتة على أنها آية من كل سورة سوى براءة في بعض القراءات، وفي بعضها ليست كذلك، لا في الفاتحة ولا في غيرها، ولذلك كما هو معلوم أن من أوجُه القراءات الصحيحة الثابتة المتواترة إسقاط البسملة أصلاً، فيصلون السورة بالسورة من غير بسملة، فلو أعيد هذا إلى القراءة أظن أن هذا سيحل الإشكال من أصله، فمن قرأ بقراءةٍ البسملةُ آيةٌ فيها من كل سورة سوى براءة فإنه لا يتركها أبداً، وتكون في عداد آيات السورة، ومن قرأ بقراءة فيها الإسقاط فله أن يسقط ويصل السور من غير بسملة، ويترك ذلك عند قراءته للسور في الأذكار كالمعوذات و**{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [(١) سورة الإخلاص]، وكذلك إذا قرأ في الصلاة لا يبسمل، بمعنى أنه لا يجب عليه أن يبسمل إذا قرأ بقراءة أخرى في الصلاة، وهذا يُحلٌّ به الإشكال.

قال صاحب المراقي:

وبعـــضهم إلـــى القـــراءة نظـــر   وذاك للوفـــــاق رأيٌ معتبـــــــر

والخلاف شهرته أكثر في سورة الفاتحة، هل البسملة آية منها أم لا؟ وليست شهرة الخلاف في السور الأخرى بقدر ما هي بسورة الفاتحة، مع أنه خلاف موجود في هذا وفي هذا كما هو مشاهد، وكما قلت آنفاً: يمكن أن يرجع هذا إلى القراءة، لكن الذين يختلفون لا يلزم أنهم يقولون: إن هذا يرجع إلى القراءة وإلا لكان الموضوع قد انتهى ولصار الاختلاف اختلاف تنوع أما الآن فالخلاف خلاف تضاد.

وأما لماذا أسقطت البسملة من سورة براءة؟ فالعلماء يتكلمون عنه ويلتمسون فيه بعض التعليلات لكن لا يقطع بشيء منها، فبعضهم يقول: لأنها نزلت بالبراءة فلا يحسن أن تُبتدأ بـــ بسم الله الرحمن الرحيم، وبعضهم يقول: إن الصحابة -رضي الله عنهم- وقع عندهم تردد هل هي سورة مستقلة أم هي من الأنفال؛ لأنها تشبهها إلى حدٍ كبير، وبعضهم يقول غير هذا، والله أعلم.

"**وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل**".

هذا القول قول داود الظاهري، يقول فيه: "**وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل**"، بل هو مذهب الإمام، بل هو المنصوص عنه صراحة أنها كما قال هنا: آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، أي أنها تنزل للفصل

فقط بين السور وليست في عداد السورة، وهذا هو مذهب عبد الله بن المبارك -رحمه الله- واختاره جمعٌ من الأئمة من المتقدمين والمتأخرين كابن قدامة صاحب المغني، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وتلميذه ابن القيم، وحتى ابن جرير هذا ظاهر المنقول عنه، وكذلك الإمام ابن خزيمة.

لكنه لم يذكر القول المشهور الذي هو من أشهر ما يذكر عند ذكر الخلاف في البسملة، وهو هل هي آية من الفاتحة أم لا؟ فهذا مذهب ومن أشهر المذاهب في هذه المسألة لم يذكره هنا، فالقول بأنها آية من الفاتحة وليست آية من كل سورة هذا منسوب إلى كثير من القراء، بل نسبه بعضهم إلى أكثر القراء، وينسب إلى جمعٍ من الأئمة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- وهذا يحتاج إلى تحرير أيضاً في نسبته وصحته عنهم، وقد نُسب إلى سعيد بن جبير، والشافعي -رحمه الله-، وهي قراءة نافع أصلاً -قراءة أهل مكة- والشافعي -رحمه الله- كان من أهل مكة، ورواية عن أحمد، وهو قول ينسب لإسحاق بن راهويه-رحمه الله- ولأبي عبيد القاسم بن سلام، ولأبي ثور، وجمع كثير جداً.

"**فأما الجهر بها في الصلاة فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية في أولها، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا**".

مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة:

من رأى أنها ليست من الفاتحة ولا من غير الفاتحة فهذا قطعاً لا يجهر بها، لكن يبقى الكلام في من قال: إنها آية من الفاتحة أو أنها آية من كل سورة، فمن يقول: إنها آية للفصل بين السور، أو أنها آية من كل سورة أو غير ذلك لا يلزم منه القول بالجهر؛ لأننا إذا رجعنا إلى الأدلة المنقولة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فنجد أن الثابت عنه -صلى الله عليه وسلم- وعن خلفائه الراشدين هو ترك الجهر بالبسملة، يعني لو كان الإنسان يتخير القول بأنها آية من الفاتحة أو آية من كل سورة بناءً على ما ثبت في بعض أوجه القراءات، فهل نقول: السنة له أن يجهر؟

قد لا يقال له ذلك؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يجهر بقراءة البسملة.

قوله: "**فأما الجهر بها في الصلاة فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية في أولها**"، في ظني أن هذه العبارة تحتاج إلى تحرير ومراجعة وضبط؛ لأنها عبارة فيها إشكال، والله أعلم.

"**وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا، فذهب الشافعي -رحمه الله- إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً**".

إذا كانت القضية تتعلق بالقراءة خارج الصلاة فالأمر في هذا واسع، واختار كثيرٌ من القراء أنه يجهر بها إن جهر بالقراءة ويسر بها إن أسرَّ، وهذا واضح ولا إشكال فيه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قرأ سورة الكوثر قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فهذا الكلام خارج الصلاة.

لكن حينما نقول: الجهر بها في الصلاة فهذه قضية عبادة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصلي بأصحابه، فالذين يقولون: إنه يجهر بها في الصلاة يستدلون بأدلة ومنها قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- سورة الكوثر، حيث قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فأسمع أصحابه، فيقال: هذا يستدل به للقراءة خارج الصلاة

بحيث إذا جهر بالقراءة جهر بالبسملة، وإن أسر بالقراءة أسر بالبسملة، بل لا إشكال حتى إن جهر بالقراءة أن يسر بالبسملة إنما الإشكال في القراءة في الصلاة؛ لأن هذه قضية تتعلق بصفة الصلاة.

فالذين يقولون يجهر يستدلون بمثل حديث أنس[١٠]، ويستدلون بحديث أنس الآخر في وصف قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كانت قراءته مداً يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم[١١]، وبحديث أم سلمة: "كان يقطع قراءته.."[١٢].

والحاصل أن هذا الوصف لقراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يلزم منه أن يكون الجهر بالبسملة داخل الصلاة، أي أن ذلك ليس بقاطعٍ على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجهر بقراءة البسملة في الصلاة، وإذا وصلنا إلى هذا القدر فعندئذٍ نحتاج إلى دليلٍ آخر أوضح من هذا وأقوى منه في الدلالة على أنه يجهر بها، والحقيقة أنه توجد أدلة واضحة وصريحة في الجهر بها لكن لا يصح من هذه الأدلة شيء، فجميع الأدلة الصريحة الواردة في الجهر بالبسملة لا يصح منها شيء.

والعلماء أطالوا في الكلام عليها، وفي بيان عللها ووجوه ضعفها، فهي لم يصح منها شيء، ولو كانت صحيحة لارتفع بها الخلاف، أو كان سيقال على الأقل: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان أحياناً يجهر وأحياناً لا يجهر مثلاً، فأقول: لو صحت تلك الأدلة لقيل بهذا أو هذا، لكنه لم يصح منها شيء، مع وجود أدلةٍ أخرى تدل على أنه لم يكن يجهر، وهي أدلة صحيحة صريحة، مثل حديث أنس في الصحيحين: "صليت خلف النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر وعمر، فما كانوا يجهرون بـــ"بسم الله الرحمن الرحيم"[١٣]، وكذلك حديث عبد الله بن مغفل -رضي الله عنه-[١٤].

فالمقصود أن عندنا أدلة صحيحة ثابتة صريحة في عدم الجهر، وأما في الجهر فأدلة صحيحة غير صريحة، أو أدلة صريحة غير صحيحة، ولذلك كان الأقرب في هذه المسألة هو أنه لا يسن الجهر بها، لكنه لو فعل ذلك ليعلّم الناس، أو لدفع مفسدة، كأن يكون بين أناسٍ يرون الجهر بها ولا يفهمون، وإذا لم يجهر ربما أعاد بعضهم صلاته أو شك في صحتها، وربما أقاموا الدنيا ولم يقعدوها، ففي هذه الحالة يجهر بها دفعاً لهذه المفسدة، فجمع القلوب وتأليفها في هذا معتبر.

"فجهر بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية -رضي الله تعالى عنهم-".

طبعاً هذا يحتاج إلى تحرير، يعني مثل ما نقل عن معاوية -رضي الله عنه- أنه لما جاء إلى المدينة صلى ولم يجهر بها، فأنكر عليه المهاجرون والأنصار، فصلى بهم بعد ذلك وجهر، فقالوا: كيف ينكر عليه المهاجرون والأنصار في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهم الذين تلقوا قراءته عنه وعرفوا

---

10 - سبق تخريجه في الحاشية رقم ٤.

11 - سبق تخريجه في الحاشية رقم ٦.

12 - سيأتي تخريجه.

13 - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب ما يقول بعد التكبير (٧١٠) (ج ١ / ص ٢٥٩) ومسلم في كتاب الصلاة - باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٣٩٩) (ج ١ / ص ٢٩٩).

14 - أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب افتتاح القراءة (٨١٥) (ج ١ / ص ٢٦٧) وأحمد (١٦٨٣٣) (ج ٤ / ص ٨٥) وقال الأرنؤوط: إسناده حسن في الشواهد.

الصلاة منه، فيدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجهر، فنقول هذا الحديث أصلاً لا يصح، فهو لم يثبت عن معاوية، كما أن هناك أدلة أخرى صريحة لكنها في غاية الضعف، وبالمناسبة فإن الشيعة والرافضة يرون الجهر بالبسملة، وبعض ما دخل في هذا من الأحاديث هو بسبب كذب هؤلاء فهم أكذب الطوائف.

لكن يبقى أن القائل: إن السنة هي الجهر بالبسملة لا يشك في صحة صلاة من أسر بها، والقائل: إن السنة هي الإسرار لا يشك في صحة صلاة من جهر بها، فغاية ما في الأمر هو ما السنة في ذلك؟، لكن المسألة تكون أكثر تأثيراً في إسقاط قراءتها بالكلية على أنها ليست من الفاتحة، فالإشكال هاهنا.

"**وحكاه ابن عبد البر والبيهقي عن عمر وعلي -رضي الله تعالى عنهما- ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة**".

هذا كله لا يثبت لا عن عمر ولا عن الخلفاء الأربعة -رضي الله تعالى عنهم-.

"**ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي -رضي الله تعالى عنهم- وهو غريب**".

طالب العلم إذا رأى مثل هذا في مسألة فإنه يتوقف ويهاب، إذ كيف يقول الخلفاء الأربعة بهذا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين))[١٥] ثم يأتي من يقول: الجهر بها ليس من السنة؟! فالجواب أن يقال: إن هذا لا يثبت عنهم أصلاً، ولذلك حتى في التفسير تجد من يقول: قال ابن عباس ومجاهد وفلان وفلان، وأكثر هذا لا يثبت عنهم.

"**ومن التابعين عن سعيد بن جبير وعكرمة وأبي قلابة والزهري وعلي بن الحسن وابنه محمد وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس ومجاهد وسالم ومحمد بن كعب القرظي وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وأبي وائل وابن سيرين ومحمد بن المنكدر وعلي بن عبد الله بن عباس وابنه محمد ونافع مولى ابن عمر وزيد بن أسلم وعمر بن عبد العزيز والأزرق بن قيس وحبيب بن أبي ثابت وأبي الشعثاء ومكحول وعبد الله بن معقل بن مقرن، زاد البيهقي: وعبد الله بن صفوان ومحمد ابن الحنفية، زاد ابن عبد البر: وعمرو ابن دينار، والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أبعاضها**".

يقول: "**والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة**"، وقال قبلُ: "**فأما الجهر بها في الصلاة فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها وكذا من قال: إنها آية في أولها**" وقد سبق أن قلت: إن هذه العبارة تحتاج إلى تحرير، وعلى كل حال حتى على القول بأنها من الفاتحة فالمرجع في ذلك هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان يقرأ ولا يجهر، والله يقول: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}** [(٢١) سورة الأحزاب].

---

[15] - أخرجه أبو داود في كتاب السنة - باب في لزوم السنة (٤٦٠٩) (ج ٤ / ص ٣٢٩) والترمذي في كتاب العلم - باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦) (ج ٥ / ص ٤٤) وابن ماجه في سننه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٢) (ج ١ / ص ١٥) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٦٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٣٥).

"وأيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم"[16] **[وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم]"**.

وضعفه جمع من أهل العلم، وعلى فرض صحته قالوا: ربما فعل ذلك أبو هريرة تعليماً لهم فقط، لا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجهر، وربما سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرؤها يُسمع أصحابه كما كان يُسمعهم في الصلاة السرية بعض الآيات أي أن ذلك كان للتعليم، ففهم أن السنة في ذلك الجهر، فيكون فهماً من أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-، فالمقصود أن قوله: "**إني لأشبهكم صلاة برسول الله -صلى الله عليه وسلم**" لا يلزم منه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجهر بالبسملة وهذا على فرض صحته.

"وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أنه سئل عن قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بـــ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم"[17].

وهذا يستدل به من يقول بالجهر، ويستدل به من يقول: إن البسملة آية من الفاتحة، مع أن هذا ليس فيه دليل على أنها آية من الفاتحة كما هو واضح وإلا فالحديث ثابت وصحيح، وفيه وصفٌ لقراءته -صلى الله عليه وسلم- ولا يعني أنه كان يجهر بها في الصلاة؛ فالحديث ليس فيه ما يدل على أن النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يفعل ذلك في صلاته.

"وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وصحيح ابن خزيمة ومستدرك الحاكم عن أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- قالت: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقطِّع قراءته: {بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(1-4) سورة الفاتحة]**، وقال الدارقطني: إسناده صحيح"**[18].

هذا الحديث ثابت من حديث أم سلمة، لكنه لا يعني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجهر بها في الصلاة فليس فيه ذكر للصلاة أبداً، وهكذا نجد أن الأدلة الصحيحة غير صريحة، وهذا يستدل به من يقول: إن البسملة آية من الفاتحة، وهذا أيضاً ليس صريحاً.

"وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي والحاكم في مستدركه عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن معاوية -رضي الله تعالى عنه- صلى بالمدينة فترك البسملة، فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرة الثانية بسمل"[19].

قوله: "**فلما صلى المرة الثانية بسمل**"، يعني جهر، لكن هذا لا يصح.

---

16 - أخرجه النسائي في كتاب صفة الصلاة - باب قراءة {بسم الله الرحمن الرحيم} (٩٠٥) (ج ٢ / ص ١٣٤) وضعف إسناده الألباني في ضعيف النسائي برقم (٩٠٥).

17 - أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن - باب مد القراءة (٤٧٥٩) (ج ٤ / ص ١٩٢٥).

18 - أخرجه أبو داود في كتاب العتق - باب الحروف والقراءات (٤٠٠٣) (ج ٤/ ص ٦٥) والترمذي في كتاب القراءات - باب في فاتحة الكتاب (٢٩٢٧) (ج ٥ / ص ١٨٥) وأحمد (٢٦٦٢٥) (ج ٦ / ص ٣٠٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٤٠٠١).

19 - مسند الشافعي (ص ٢٥٠).

"وفي هذه الأحاديث والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها فأما المعارضات والروايات الغريبة وتطريقها وتعليلها وتضعيفها وتقريرها فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يُجهر بالبسملة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل –رضي الله تعالى عنهم– وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل".

في كتابٍ واحد بل في صفحة واحدة ينسب إلى الخلفاء الراشدين أولاً أنهم يرون الجهر بالبسملة، أو أنهم كانوا يجهرون بها، ثم في نفس الصفحة يأتي القول الآخر، وهو مضاد ومناقض للقول الأول تماماً وهو أنهم ما كانوا يجهرون بها.

"وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة بالكلية لا جهراً ولا سراً".

هذا بناءً على مذهبه من أنها ليست آية مستقلة أصلاً لا من السورة ولا من غير السورة، لكن هذا القول يبقى فيه إشكال، وإن كان يمكن أن يقال به على بعض الأوجه في القراءة، أما أن يقال: إنها ليست آية بإطلاق فهذا فيه إشكال كبير؛ لأن الأدلة على أنها آية واضحة.

"واحتجوا بما في صحيح مسلم عن عائشة –رضي الله تعالى عنها– قالت: "كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـــ الحمد لله رب العالمين"[٢٠].

هذا يستدل به على أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يكن يجهر بالبسملة، لكن لا يلزم من ذلك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يكن يبسمل سراً، إنما فيما يُسمعهم كان يفتتح القراءة بالحمد لله رب العالمين.

ويلاحظ أنه إذا جمعت هذه الأدلة جميعاً فإننا نخرج منها بنتيجة وهي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يكن يجهر لكن لا يعني هذا أنه لا يبسمل، فالبسملة ثابتة وعدم الجهر بها هو السنة، ومن أسقطها فهذا يصح على بعض أوجه القراءة المتواترة، والقول بالجهر بها في الصلاة يحتاج إلى دليل آخر.

"وبما في الصحيحين عن أنس بن مالك –رضي الله تعالى عنه– قال: صليت خلف النبي –صلى الله عليه وسلم– وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بـــ الحمد لله رب العالمين"[٢١]، ولمسلم: ولا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها"[٢٢] ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل –رضي الله تعالى عنه–".

هذه أدلة صريحة وصحيحة في عدم الجهر لا يوجد مثلها عند القائلين بالجهر.

"فهذه مآخذ الأئمة –رحمهم الله– في هذه المسألة، وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، ولله الحمد والمنة".

---

20 – أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة – باب من لم ير الجهر بـــ (بسم الله الرحمن الرحيم) (٧٨٣) (ج ١ / ص ٢٨٥) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٧٨٣).

21 – أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة – باب ما يقول بعد التكبير (٧١٠) (ج ١ / ص ٢٥٩) ومسلم في كتاب الصلاة – باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٣٩٩) (ج ١ / ص ٢٩٩).

22 – صحيح مسلم في كتاب الصلاة – باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٣٩٩) (ج ١ / ص ٢٩٩).

قوله: "**وهي قريبة**"، يعني أن ذلك لا يترتب عليه كبير أثر من صحة الصلاة وعدم ذلك، فالقضية في العمل المسنون هل هو الجهر أو الإسرار؟.

وبعض أهل العلم لما رأى أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء قال: إن الإنسان مخير بالجهر وعدم الجهر، وهذا قول ابن حزم الذي خالف فيه شيخه داود.

"وروى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن رديف النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "عثر بالنبي –صلى الله عليه وسلم– فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته وإذا قلت: بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب))[٢٣].

وقد روى النسائي في اليوم والليلة وابن مردويه في تفسيره عن أسامة بن عمير –رضي الله تعالى عنه– قال: كنت رديف النبي –صلى الله عليه وسلم– فذكره، وقال: ((لا تقل هكذا فإنه يتعاظم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة))[٢٤]، فهذا من تأثير بركة بسم الله.

ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول، فتستحب في أول الخطبة لما جاء، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء لما ورد من الحديث في ذلك[٢٥]، وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن من رواية أبي هريرة وسعيد بن زيد وأبي سعيد –رضي الله تعالى عنهم– مرفوعاً: ((لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه))[٢٦] وهو حديث حسن.

وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال لربيبه عمر بن أبي سلمة –رضي الله تعالى عنه–: ((قل بسم الله وكل بيمينك وكل مما يليك))[٢٧]".

عمر بن أبي سلمة هذا هو ولد أم سلمة؛ وذلك أنه لما مات زوجها وتزوجها النبي –صلى الله عليه وسلم– كان معها هذا الولد.

"ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه".

على كل حال قراءة البسملة أو قول البسملة في افتتاح كل أمر عند الأكل ثبت فيه هذا الحديث: ((سم الله يا غلام)) ومسألة الوضوء: ((لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه)).

---

23 – أخرجه أحمد (٢٠٦١١) (ج ٥ / ص ٥٩) والنسائي في السنن الكبرى (١٠٣٨٨) (ج ٦ / ص ١٤٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٤٠١).

24 – أخرجه النسائي في اليوم والليلة (ج ١ / ص ٣٧٣) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣١٢٨).

25 – أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٨٠٣) (ج ٣ / ص ١٦١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٧١٤).

26 – أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة – باب التسمية على الوضوء (١٠٢) (ج١ / ص ٣٧) والترمذي في أبواب الطهارة – باب ما جاء في التسمية عند الوضوء (٢٥) (ج١ / ص ٣٧) وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها – باب ما جاء في التسمية في الوضوء (٣٩٧) (ج ١ / ص ١٣٩) وأحمد (١١٣٨٨) (ج ٣ / ص ٤١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٥١٤).

27 – أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة – باب التسمية على الطعام والأكل باليمين (٥٠٦١) (ج ٥ / ص ٢٠٥٦) ومسلم في كتاب الأشربة – باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢٢) (ج ٣ / ص ١٥٩٩).

والخلاف في هذا مشهور ومعروف، ومن أهل العلم من يضعف الحديث، ومنهم من حسَّنه، فيقولها الإنسان من باب الاحتياط على الأقل؛ لقوة الخلاف في هذا، والحديث محتمل، فيحرص الإنسان ألا يترك البسملة، وأما حديث: كل أمرٍ لا يبدأ فيه بـــ بسم الله، فمثل هذا الحديث لا يصح.

"وكذلك تستحب عند الجماع؛ لما في الصحيحين عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً))[28] ومن هاهنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بـــ الباء في قولك: بسم الله.."

قوله: "**ومن هاهنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بـــ الباء في قولك: بسم الله**"، هنا يبدو أنه يوجد اختصار في الكلام بمعنى أنه حذف منه شيئاً، ثم قال بعده هذا، والخلاصة أنه ذكر أشياء متعددة كحديث: ((سم الله يا غلام)) و ((لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه)) بمعنى أنه يريد أن يقول: إن البسملة يصح أن يكون المتعلق فيها كوناً عاماً، ويصح أن يكون خاصاً في كل شيء بحسبه، ويصح أن يكون اسماً ويصح أن يكون فعلاً، فعندنا أشياء معينة مخصوصة مثل قوله تعالى: **{وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا}** [(٤١) سورة هود]، فهنا اسم مصدر خاص، أي أن جريها كائنٌ وواقعٌ بسم الله.

ومثل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يا غلام سم الله وكل بيمينك)) يصح أن يقال في قوله: سم الله: إن التقدير فيه بسم الله آكل، أو بسم الله أبدأ، فهو لم يحدد فيه شيئاً وإنما أمره أن يقول البسملة في بداية الأكل.

وجاء أيضاً قوله تعالى: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** [(١) سورة العلق] فذكر الفعل وقدمه، وكل هذا لا إشكال فيه، فالتنقير في مثل هذا أظنه لا يجدي كثيراً، فيمكن أن يكون المتعلق أو المقدر اسماً، فتقول: بسم الله أي: أكلي بسم الله، أو بسم الله قراءتي، أو بسم الله ابتدائي، أو ابتدائي بسم الله، ويمكن أن يكون مقدماً أو مؤخراً، ويمكن أن يكون فعلاً خاصاً أو عاماً نحو: أقرأ بسم الله، آكل بسم الله، أمشي بسم الله، أدخل بسم الله، أو بسم الله أدخل، أو دخولي بسم الله، أو تجعله فعلاً عاماً فتقول: أبدأ بسم الله، أي أبدأ في الأكل أو الشرب أو الدخول أو النوم.. الخ.

وبعض أهل العلم يستحسن أن يكون التقدير خاصاً؛ لأنه أعلق وألصق بالمراد، وبعضهم يستحسن أن يكون عاماً لتصلح البسملة في كل شيء، وبعضهم يقول: الأفضل أن يكون اسماً؛ لأن الاسم أدل على الثبوت، وبعضهم يقول: أن يكون فعلاً؛ لأن الفعل يدل على التجدد، وبعضهم يقول: يؤخر؛ لئلا يتقدم شيء على اسم الله -عز وجل- ولأن ذلك أبرك، وعلى كل حال فأمر هذه المسألة سهل، فالمطلوب منك أن تقول: بسم الله ودع عنك هذه التقديرات يقدرها من شاء كيف شاء.

---

[28] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب ما يقول إذا أتى أهله (٦٠٢٥) (ج ٥ / ص ٢٣٤٧) ومسلم في كتاب النكاح - باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (١٤٣٤) (ج ٢ / ص ١٠٥٨).

إنه لمن المؤسف أن ننقّر عن أمور لا داعي ولا حاجة لتنقيرها لوضوحها، ففي حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً: ((لا يدخل الجنة قاطع))[٢٩] تجد إنساناً له رحم لا يعرفونه ولا يعرفهم ومع ذلك ينقّر في هذه المسألة ويتكلف غاية التكلف في معرفة هل المقدر اسم أم فعل وهل هو مؤخر أم مقدم؟ حتى ينوي هذا أو هذا، والله سبحانه لم يكلفه بهذا أصلاً وإنما حذره من قطع رحمه، فليصل أرحامه، وليقل: بسم الله إذا أراد فعل شيءٍ وانتهى الأمر، وليس معنى هذا أن الإنسان يترك مسائل العلم وإنما المقصود أن ينزل الأمور كما ينبغي.

"**وكلٌ قد ورد به القرآن، أما من قدره باسمٍ تقديره بسم الله ابتدائي، فلقوله تعالى: {وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٤١) سورة هود]**".

يقصد هنا أن هذا نظير هذه الآية باعتبار أنه اسم لكنْ هنا في الآية خاص بخلاف تقدير ابتدائي، فإنه عام.

"**ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً نحو: ابدأ بسم الله، أو ابتدأت بسم الله فلقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [(١) سورة العلق] وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا بد له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً، أو قراءة أو وضوءًا أو صلاة، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم**".

قوله: "ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً"، كان الأدق أن يقال: قدره بالفعل سواء كان ماضياً أو مضارعاً، فـــ: "أبدأ بسم الله" هذا فعل مضارع، و"ابتدأت أو ابتُدئ بـــ بسم الله، هذا في الماضي.

وعلى كل حال الكتاب له نسخ كثيرة جداً، وهذه النسخ يوجد بينها كثير من الفروقات، ومن هذه الفروقات ما هو بسبب تصحيف النُّساخ، ومنها بسبب أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كان يعيد النظر في الكتاب مرةً بعد مرة، ويغير فيه كعادة المؤلفين، وسابقاً لم تكن توجد مطابع بحيث تأتي طبعة وتكتب أخرى بحيث تكون الأخيرة مصححة منقحة وانتهى الأمر، وإنما الذي حدث أن النُّسخ ليس فيها تاريخ، فانتشرت النسخ الأولى بين العلماء فبعضهم يعدل في النسخة التي بحوزته باعتبار أنها في ملكه ثم تصير هذه النسخة لمن بعده، فيظن من بعده أن هذه التعديلات من تصحيحات المؤلف وقد تكون هذه التعديلات فيها تصحيف فهو يعتمد هذا التعديل الذي في الهامش ويلغي ما هو في أصل النسخة، فالمقصود أن هذه الأخطاء بعضها وجدت بسبب التصحيفات وبعضها من فعل المؤلف نفسه وبعضها من فعل غيره، وهذه المشكلة موجودة في عدد من الكتب بل إن بعضهم يتصرف فيكتب صفحات من عنده، فتفسير السعدي مثلاً توجد له طبعة سابقة فيها صفحات مكتوبة في الداخل وليست للسعدي.

وأحياناً المؤلف نفسه يعيد النظر لما في بعض النسخ التي كتبها، فيقوم بإعادة الصياغة في بعض أوائل السور، بمعنى أنه يصوغها صياغة جديدة، وهذا شيء ليس فيه غرابة؛ لأن الإنسان إذا كتب وأعاد النظر فيما كتب مرةً بعد مرة يجد أنه قد فاتته بعض الأشياء التي تلوح واضحة؛ لأن الإنسان حينما يؤلف ويقرأ ما كتب فإنه يقرأ أفكاره، فلا تستغرب أن تفوت عليه أشياء واضحة أحياناً، والناقد بصير، وليس في هذا عيب.

---

[29] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب إثم القاطع (٥٦٣٨) (ج ٥ / ص ٢٢٣١) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٦) (ج ٤ / ص ١٩٨١).

ولذلك يحسن بالإنسان إذا كتب أو ألَّف أن يترك هذا الكتاب الذي كتبه مدة حتى ينساه، ثم يقرؤه بعد ذلك وسيستغرب كيف كتب بعض الأشياء، سيستغرب من ركاكة بعض العبارات والتراكيب وسينتقدها ويغيرها، وهكذا، بل ربما لو مضى عليه زمن يكفي في النمو فإنه سيغير كثيراً من الكتاب، ويحمد الله أنه لم يخرج هذا الكتاب، لكن الإنسان ما يرى عيوبه، فربما إذا ألف يظن من أول وهلة أن هذا الكتاب مخيوط، وأنه لا يوجد مثله، وأنه قد حقق فيه المسائل بأحسن عبارةٍ، ولكن غيره قد يرى أنه لا تبرأ به الذمة.

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٦)

لفظ الجلالة الله - الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر: "الله: علمٌ على الرب -تبارك وتعالى- يقال إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ* هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ* هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(٢٢-٢٤) سورة الحشر]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [(١٨٠) سورة الأعراف]، وقال تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١١٠) سورة الإسراء]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة))[1]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالمؤلف لا زال في شرح البسملة، وفي قوله هنا: "**الله: علمٌ على الرب -تبارك وتعالى-**" أي أنه لا يسمى به غيره، فهو من الأسماء المختصة، وهذا الاسم لا يعرف أحد تسمى به لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو يختص بالله -عز وجل- لفظاً ومعنى، فلفظاً بمعنى أن هذا اللفظ لا يصح أن يسمى به أحد غيره، ومعنى بمعنى أن الصفة التي تضمنها -وهي صفة الإلهية- لا يصلح شيءٌ منها للمخلوق لا جملةً ولا تفصيلاً.

قال: **يقال إنه الاسم الأعظم**، معلوم أن من أسماء الله الاسم الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وهذا الاسم فيه خلافٌ معروف، وأشهر الأقاويل أن هذا الاسم الأعظم هو "الله".

والذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا هو دليل من النظر، وذلك أن سائر الأسماء الحسنى جميعاً ترجع إليه لفظاً ومعنى، وكون الأسماء الحسنى ترجع إليه لفظاً، أي أنها تأتي بعده، ولا يأتي بعدَ شيءٍ منها، كما في الآيات التي ذكرها هنا كقوله: **{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ* هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ..}** [(٢٢-٢٣) سورة الحشر] إلى آخر ما ذكر الله -عز وجل-، فلفظ "الله" تأتي الأسماء الأخرى بعده ولا يأتي هو بعد شيء منها.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب إن لله مائة اسم إلا واحداً (٦٩٥٧) (ج ٦ / ص ٢٦٩١) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧) (ج ٤ / ص ٢٠٦٢).

هذا في اللفظ، وأما في المعنى فإن هذا الاسم الكريم "الله" يتضمن صفة الإلهية وهي أوسع الصفات، وهذه الصفة ترجع إليها جميع الصفات، فإن الإله يجب أن يكون هو الرب، العليم، الحكيم، الخالق، البارئ، المصور؛ لأن الرب لا يمكن أن يكون عاجزاً جاهلاً فقيراً، أو متصفاً بشيء من صفات النقص، ولهذا يقال: إن صفة الإلهية متضمنة لصفة الربوبية، وصفة الربوبية من أوسع الصفات، فإن الرب هو السيد والمالك، والمدبر المتصرف، والمربي لخلقه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهكذا تصور كم يدخل تحت هذا الاسم من المعاني التي هي صفات الكمال؟، فهذه الربوبية داخلة في معنى الألوهية، وهذا معنى كون الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية، فالذي تقول عنه: إنه هو الرب الخالق الرازق المصور يجب أن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، فلا تصرف العبادة لأحدٍ سواه، فهذا الدليل هو الذي أشار إليه ابن كثير –رحمه الله– هنا، وهو أن الأسماء الحسنى تعود إليه لفظاً ومعنى.

وأما الأدلة من المنقول على أنه الاسم الأعظم فهي ثلاثة أحاديث، الأول: الحديث الذي ذكر فيه النبي –صلى الله عليه وسلم– أن الاسم الأعظم في ثلاث سور، والاسم المتكرر في هذه السور الثلاث هو: "الله"، و"الحي القيوم"، في سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة طه، قال تعالى في سورة البقرة: **{اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}** [(٢٥٥) سورة البقرة]، وقال في سورة آل عمران: **{الم* اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}** [(١-٢) سورة آل عمران]، وقال في سورة طه: **{وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا}** [(١١١) سورة طـــه].

فالمقصود أن هذه الأسماء الثلاثة متكررة في هذه السور الثلاث، ولهذا كان القول الثاني في القوة هو أن الاسم الأعظم هو "الحي القيوم" بعد القول الأول بأنه لفظ الجلالة " الله" بمعنى أن أقوى الأقوال في الاسم الأعظم أنه "الله"، ثم يليه في القوة "الحي القيوم".

والذي يدل على أن الاسم الأعظم هو "الله" الحديثان الآخران، في الرجلين حينما دعوا الله –عز وجل– بدعاءٍ يشتمل على ذكر بعض الأسماء الحسنى، فكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((لقد دعا الله باسمه العظيم))[2] فإذا نظرنا في الأسماء المذكورة نجد أن المتكرر في الجميع هو "الله" وليس "الحي القيوم".

يقول: "**فأجرى الأسماء الباقية كلها صفاتٍ له كما قال تعالى: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١٨٠) سورة الأعراف]**" هذا وجه الاستشهاد، فهو لا زال في الدليل النظري الذي ذكره، وهو أن الأسماء الحسنى تعود إليه لفظاً ومعنى –أي لفظ "الله"– قال تعالى: **{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}** [(١٨٠) سورة الأعراف] فلم يقل: وللعزيز الأسماء الحسنى، أو وللرزاق الأسماء الحسنى، وإنما أضافها إلى هذا الاسم الكريم فقال: **{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}** فيكون محدَّثاً عنه ومخبَراً عنه، وتضاف إليه سائر الصفات، كما قال في الآية الأخرى: **{قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}** [(١١٠) سورة الإسراء]، فقوله: **{فَلَهُ الأَسْمَاء}** أي لله.

---

[2] – أخرجه أبو داود في كتاب الوتر – باب الدعاء (١٤٩٧) (ج ١ / ص ٥٥٤) والنسائي في كتاب صفة الصلاة – باب الدعاء بعد الذكر (١٣٠٠) (ج ٣ / ص ٥٢) والترمذي في كتاب الدعوات – باب جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣٤٧٥) (ج ٥ / ص ٥١٥) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٤٩٥).

ومن ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لله تسعةً وتسعين اسماً))[٣] فما قال: إن للرزاق وإنما قال: ((إن لله تسعةً وتسعين اسماً))، فهذا الاسم هو أعظمها، والله تعالى أعلم.

"{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}: **اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم**".

وجه المبالغة هو أن الرحمن على وزن فعلان، فعدل به عن نظرائه حيث يقال: رحم يرحم فهو راحم ورحيم، فهنا قال: رحمن على وزن فعلان، والغالب أن يقال: على وزن فعيل، أي رحم فهو رحيم، فهنا قال: رحمن، وهذا يدل على الامتلاء، كما تقول: ظمآن وعطشان وجوعان وغضبان وما إلى ذلك، فهذا يدل على المبالغة.

وكذلك الرحيم على وزن فعيل، فهذا يدل على المبالغة، وحينما نقول: المبالغة لا يفهم منها المبالغة التي تكون من قبيل الخروج عن الحقيقة بتجاوزها، فليس هذا هو المقصود حينما يعبر بهذا عند شرح ألفاظ الكتاب والسنة، لذلك سألني أحد الشباب مرةً ونحن في درس من دروس التفسير فقال: كيف تقول بأن هذه صيغة مبالغة، وهل يقال عما في القرآن إنه مبالغة؟

قلت له: المبالغة التي يتحدث عنها العلماء ويذكرها البلاغيون وأهل اللغة، ليست هي ما تعارف الناس عليه من أنه تجاوز الحقيقة وتعديها بزيادة وإنما المقصود بالمبالغة ما يدل على الكثرة والتعاظم، وما أشبه ذلك من المعاني في كل موضع بحسبه.

يقول: "**الرحمن الرحيم**" **اسمان مشتقان من الرحمة**"، و"الله" إما مشتقٌ من أله يأله -بمعنى عبد يعبد- إلهةً أي عبادةً، والله مألوه أي معبود، أو من الإله، أو مشتقٌ من الإلهية، وقيل غير ذلك، لكن هذه أشهر الأقوال في هذا.

وعلى كل حال فـــ"الله" اسمٌ مشتق على الراجح، ولا أدري هل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حينما قال: "الله علمٌ على الرب تبارك وتعالى" ولم يذكر مادة الاشتقاق، هل هو ممن يقول بأن هذا الاسم الكريم غير مشتق، وإنما هو علم على الذات الإلهية، وهذا قول لبعض العلماء، لكن الراجح أن هذا الاسم مشتق كما قلت، والأسماء المشتقة أبلغ من الأسماء الجامدة؛ لأن الأسماء المشتقة تتضمن أوصافاً، والاسم الجامد لا يتضمن صفةً، فأسماء الله -عز وجل- أعلام وأوصاف، ولا يتأتى أن تكون أوصافاً إلا إذا كانت مشتقةً، بمعنى أنها تتضمن صفةً، أما إذا كان الاسم علماً جامداً فإنه لن يتضمن صفةً، فهذا الاسم الكريم مشتقٌ ويتضمن صفة الإلهية، وكل أسماء الله -عز وجل- مشتقة وليس فيها شيءٌ جامد.

وهنا يقول: "**الرحمن الرحيم**" **اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة**" فالقدر الذي يدل عليه كل واحد منهما من جهة الصفة التي تضمنها هي صفة الرحمة، فكلاهما يدل على صفة الرحمة، إلا أن ثمة فرقاً بين هذين الاسمين من جهة اللفظ ومن جهة المعنى التكميلي، وأما المعنى الأصلي فإنه يدل على صفة الرحمة، لكن المعنى الزائد على المعنى الأصلي هو أن الرحمن أكثر مبالغةً من الرحيم، ومن هنا فرق العلماء بينهما، أو فرق كثيرٌ منهم بين الرحمن والرحيم، واختلفت أقوالهم في هذا، ولعل من أحسنها أن الرحمن يدل على

---

[3] - سبق تخريجه.

الصفة الذاتية العائدة على الله -عز وجل- من الرحمة، والرحيم يدل على تعلقها بالمرحوم، يعني القدر المتعدي من صفة الرحمة، يعني أن المعنى في الرحمن يكون صفة لازمة، وفي الرحيم يدل على القدر المتعدي إلى المخلوق، وهذا الذي اختاره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ولعله أوجه هذه الأقوال وأحسنها، والله أعلم، وإن كان بعضهم يقول غير ذلك، كمن يفرق من جهة سعة الرحمة وخصوصها، وهي إما في الدنيا أو في الآخرة، أو للمؤمنين أولغير المؤمنين، وهذا عند التأمل فيه إشكال.

"وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا".

حينما يقال: إن الرحمن أشد مبالغةً من الرحيم، فيمكن أن نقول: إن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، والوجه الثاني: أنه عدل به عن نظرائه، تقول: رحمن من رحم يرحم فهو رحيم على وزن فعِل يفعَل فهو فعيل، فعدل به فقيل: فعِل يفعَل فهو فعلان، وما عدل به عن زنة نظرائه فإنه يكون أبلغ في المدح أو الذم، وكما قلت قبلُ أن مثل هذا الوزن يدل على الامتلاء، فهو أبلغ من رحيم، لكن على كل حال إذا ذكر الرحمن وحده فإنه يؤدي معنى الرحيم، أي أنه يدل على إثبات صفة الرحمة لله -عز وجل-، لكن إذا ذكر مع الرحيم كان الرحمن يدل على ما يتعلق بالرب من هذه الصفة ويعود إليه، والرحيم يدل على ما يتصل بالمخلوق.

"وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي..))"

هذا دليل واضح وصريح في أن الرحمن اسم مشتق، وهذا يدل على أنه عربيٌ أصيل، وهذا خلافاً لمن قال: إنه عبراني مثلاً، وأن أصله الرخمن، فهذا وإن نقل عن بعض الأئمة لكنه لا يصح إطلاقاً، بل هو اسمٌ عربي، وهو مشتق ليس بجامد، ومما يدل على ذلك هذا الحديث.

"((قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته))[٤]".

هذا يدل على أن الصفة تشتق من الاسم، والأسماء تتضمن أوصافاً، ولكننا نأخذ الصفات من الأسماء -بالنسبة لأسماء الله -عز وجل-، فالقاعدة فيما يطلق على الله -عز وجل- من الأسماء ليس في كون الأسماء تؤخذ من الصفات، وإنما العكس أي نأخذ الصفات من الأسماء، فالله لا يسمى إلا بما سمى به نفسه، لكن عند الكلام على المعنى اللغوي نقول: الرحمن مشتقٌ من الرحمة، والعزيز مشتقٌ من العزة وما أشبه ذلك، لكن الكلام في التسمية، لا يقال فيها: إن الأسماء تؤخذ من الصفات، وإنما نقول: الصفات تؤخذ من الأسماء.

"قال: وهذا نص في الاشتقاق، وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له".

---

[4] - أخرجه أحمد (١٦٨٠) (ج ١ / ص ١٩٤) والطبراني في الكبير (٢٤٩٧) (ج ٢ / ص ٣٥٥) وفي الأوسط (٣٣٣٩) (ج ٣ / ص ٣٤٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٥٢٨).

يعني في مثل قولهم: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ}** [(٦٠) سورة الفرقان]، فابن كثير -رحمه الله- هنا صرح بأنهم قالوا ذلك جهلاً، ففي قصة الحديبية، لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اكتب بسم الله الرحمن الرحيم)) قال سهيل بن عمرو: "لا نعرف الرحمن، وإنما اكتب باسمك اللهم"[٥].

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أنهم قالوا ذلك بسبب جهلهم، وكثيرٌ من أهل العلم يرون أنهم قالوا ذلك على سبيل المكابرة، والدليل على أنهم قالوا ذلك على سبيل المكابرة أنهم سموا بعض الناس في الجاهلية بـــ عبد الرحمن، وبدليل أن هذا الاسم جاء في أشعارهم، لكن على كل حال حتى لو سمي به البعض، أو جاء في أشعارهم فإنه يمكن أن يجهله بعض العرب؛ فهم أهل جاهلية أصلاً وبالتالي لا يستبعد عليهم مثل هذا، وعلى كل حال سواء قالوا ذلك على سبيل المكابرة أو الجهل فإنه قد أقر به بعضهم، وثبت في تسميتهم أو في بعض شعرهم "الرحمن".

وهذا الاسم أيضاً هو مختصٌ بالله -عز وجل-، لا يسمى به غيره، والعلماء يقولون: لم يعرف أحد تسمى بالرحمن غير مسيلمة الكذاب لقب نفسه بذلك، فعاقبه الله -عز وجل- بأن قرن اسمه بالكذب، فلا يعرف إلا بمسيلمة الكذاب، ولذلك هم كانوا يقولون للنبي -صلى الله عليه وسلم-: لا نعرف إلا رحمن اليمامة، وأعجب ما سمعت في هذا الصيف أن رجلاً في بعض نواحي هذه البلاد التي يكثر فيها الجهل اسمه "الرحمن"، وقد قلنا: إن العلماء يصرحون بأنه لا يعرف أحد تسمى به لا في الجاهلية ولا في الإسلام غير مسيلمة، والله المستعان.

"قال القرطبي: ثم قيل هما بمعنى واحد كندمان ونديم، قاله أبو عبيد، وقيل ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل، نحو قولك رجل غضبان للرجل الممتلئ غضباً، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول".

المراد بهذا ذكر الوجوه التي تدل على أن الرحمن أبلغ من الرحيم، فيقول: فعيل يأتي بمعنى فاعل ومعنى مفعول، وفعيل مصدر، والمصدر يأتي بمعنى الفاعل وبمعنى المفعول، وما كان على وزن فعيل فهو بمعنى فاعل أو مفعول، مثل: رجيم فهو بمعنى راجم أو مرجوم، وقد يكون بمعنى الفاعل والمفعول.

وعلى كلٍّ فهذا أحد الوجوه في التفريق بين الرحمن والرحيم.

"قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسمٌ عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى".

أبو علي الفارسي من أئمة اللغة، وهو من المعتزلة.

"والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين، قال الله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [(٤٣) سورة الأحزاب]".

قوله: **والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين**" هذا قول فيه نظر؛ والاستدلال بقوله تعالى: **{وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}** ليس في محله؛ لأن هذا إنما هو من باب تقديم الجار والمجرور، فأصلها: وكان رحيماً بالمؤمنين، فلما قدم دل على الحصر أو الاختصاص أو نحو هذا، وإلا فالرحمة عامة وخاصة، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}** [(١٤٣) سورة البقرة]، فهذا عام، وبالتالي فالقول بأن الرحمن

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١) (ج ٢ / ص ٩٧٤).

يدل على الرحمة العامة، والرحيم يختص بالمؤمنين قولٌ فيه نظر وفيه إشكال، لوجود أمثلة كثيرة تخالف ذلك، والله أعلم.

"وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة. وقال ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زفر، سمعت العرزميَّ يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم قال: بالمؤمنين، قالوا: ولهذا قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [(٥٩) سورة الفرقان]، وقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [(٥) سورة طــه]، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته".

هذا الكلام ليس لازماً، وإنما هو من الوجوه التي تلتمس في مثل هذا الاقتران، وإلا فلماذا حينما ذكر الاستواء ذكر معه اسم الرحمن؟ يوضحه أن العرش أوسع المخلوقات فيقولون: استوى عليه بأوسع الصفات، فرحمن أي رحمته واسعة كما قال: **{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}** [(١٥٦) سورة الأعراف]، لكن هذا الاقتران لا يلزم منه أن يكون الرحمن يدل على الرحمة العامة، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة وإنما يمكن أن نقول: الرحمة صفة متعدية، أما إذا قلنا: إن الرحمن يدل على ما يعود إلى الرب منها، فنقول: يدل على إثبات الصفة الذاتية بهذا القيد، وليس معنى ذلك أن صفة الرحمة صفة ذاتية ولا يوجد أحد يقول بهذا، وإنما هي صفة متعدية، لكن إذا فرقت هذا التفريق بين الرحمن والرحيم، فقلت: إنه يدل على ما يعود إلى الرب منها، فيكون الرحمن دالاً على الصفة الذاتية، والرحيم دالاً على الصفة الفعلية والمتعدية.

"وقال: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [(٤٣) سورة الأحزاب]، فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه".

لكن هذا ليس صريحاً في الدلالة أبداً.

"والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: ((رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما))[6]".

على كل حال هذا الدعاء بغض النظر عن صحته فالعلماء تكلموا عليه وضعّفه من ضعّفه منهم، لكن توجد نصوص واضحة صريحة كقوله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}** [(١٤٣) سورة البقرة] فهذا وأمثاله يدل على أن الرحيم ليس بمختص بالمؤمنين، أو مختص بدارٍ دون الأخرى، وعلى كل حال إذا أثبت الإنسان صفة الرحمة، وأن الاسمين متضمنان لهذه الصفة فبعد ذلك مثل هذه الأمور والتفصيلات الخطب فيها يسير.

"واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسمَّ به غيره، كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١١٠) سورة الإسراء]".

سبق أن ذكرنا أن اسم "الله" مختص بالله تعالى لفظاً ومعنى، وقلنا: إن معنى قولنا: مختص لفظاً أي: أنه لا يصلح أن يسمى به غيره، ومختص معنىً أن صفة الإلهية التي تضمنها هذا الاسم لا يصلح شيء منها للمخلوق لا جملةً ولا تفصيلاً، وبالنسبة لاسمه "الرحمن" يقال فيه: هو مختصٌ بالله تعالى لفظاً لكنه ليس مختصاً به معنى؛ لأن المخلوق يوصف بالرحمة.

---

6 – أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٠٨٠) (ج ٢٠ / ص ١٥٤) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٨٢١).

"وقال تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [(٤٥) سورة الزخرف]".

يعني أن قوله تعالى: **{أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ}**، وقوله: **{قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ}** [(١١٠) سورة الإسراء] ذكر فيهما اسمه الرحمن مع اسمه "الله" الذي هو أشهر الأسماء وأعظمها وأوسعها من جهة المعنى، وهذا الاقتران لا تكاد تجده في غير لفظ الجلالة "الله" إلا في الرحمن.

"ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمَّى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به، فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب، وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى} [(١١٠) سورة الإسراء]، وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به، ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة".

الذين كانوا مع مسيلمة تابعوه وهم يعلمون أنه كذاب، والحاصل أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يشير إلى وجه تقديم "الله" على "الرحمن"، فيمكن أن يقال: إن لفظ "الله" قُدِّم لأنه أعظم هذه الأسماء، وهي تعود إليه لفظاً ومعنى، وتأتي معطوفةً عليه، ويخبر بها عنه، ثم جاء بعده "الرحمن" الذي يختص بالله -عز وجل- من جهة اللفظ دون المعنى، ثم جاء "الرحيم" وهو اسمٌ غير مختص من جهة اللفظ وإنما يسمى به المخلوق كما أنه يوصف بصفة الرحمة، فإذا أردت أن ترتب هذه الأسماء الثلاثة فالذي يأتي في المرتبة الأولى هو "الله"؛ لأنه مختص لفظاً ومعنى، ثم "الرحمن" فهو مختص باللفظ دون المعنى، ثم "الرحيم" فهو ليس مختصاً لا لفظاً ولا معنى.

"وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، قال: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٢٨) سورة التوبة]، كما وصف غيره بذلك من أسمائه، كما قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [(٢) سورة الإنسان].

والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها مالا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك، فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخصُّ وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

وقد جاء في حديث أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقطع قراءته حرفاً حرفاً: {بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(١-٤) سورة الفاتحة] فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة، ومنهم من وصلها بقوله: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة]".

من قوله: "**وقد جاء في حديث أم سلمة**.." هذا كلام جديد وقضية جديدة لا أدري لماذا لم يضع لها عنواناً كعادة المختصر؟، والمقصود أنه بدأ يتكلم عن قضية ثانية، حيث انتهى من الكلام عن معاني هذه الأسماء الحسنى.

وقوله في آخر الكلام: إنه بدأ بالأشرف وهو اسم الله، أو أن الرحمن هو أشرف من الرحيم، أو حينما يقال: هذا أبلغ في التسمية أو نحو هذا فهذا لا إشكال فيه، وليس المقصود بهذا أن ما سواه غير موصوف بهذه الصفة، وإنما يقال ذلك في الأشياء الكاملة دون أن يكون المقصود غمط الأسماء الأخرى، وهذا يقال في القراءات كما في كثير من كتب التفسير، حيث تجده يقول: هذه القراءة أبلغ من هذه القراءة وليس المقصود غمط القراءة الأخرى.

وأما ما يفعله بعض أصحاب الكلام على تفسير معاني القرآن، وأصحاب توجيه القراءات مما يحدو بهم إلى ترجيح إحدى القراءتين ترجيحاً يشعر بغمط الأخرى أو توهينها وهي ثابتة متواترة فهذا أمرٌ لا يليق مع القرآن، وإلا فإن سور القرآن تتفاوت وتتفاضل، فسورة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص] تعدل ثلث القرآن، وهذا معروف وأهل السنة يقررونه خلافاً لبعض من أنكر ذلك وقال: إن هذه المفاضلة لا تقال، وإنها تشعر بغمط غير المخبر عنه أو غير الموصوف بذلك، وأنه لا يقال ذلك في أسماء الله -عز وجل-.

والجواب عمن قال بمنع ذلك أن يقال: بل إنها تتفاضل وقد بلغت الغاية في الكمال، فالتفاضل إنما هو في الكمالات وليس في الكمال والنقص، ومراتب الكمال متفاوتة، ولهذا قال إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} [(٢٦٠) سورة البقرة]، فلم يكن -صلى الله عليه وسلم- متردداً في هذه القضية بحيث يقال: إنه كان يشك في قدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى والبعث، ولكنه أراد أن ينتقل من مرتبة من مراتب الكمال وهي علم اليقين إلى مرتبة أعلى منها وهي عين اليقين، فبعضهم يسمي المسافة بين هذين الأمرين شكاً، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم عليه الصلاة والسلام))[٧] فالمقصود أن إبراهيم أراد أن ينتقل من مرتبة من مراتب الكمال إلى مرتبة أعلى منها.

وقل مثل ذلك حينما نتكلم عن أسماء الله الحسنى أو عن سور القرآن، فنقول: هذه السورة أفضل من هذه السورة، أو هذه الآية أعظم في كتاب الله -عز وجل- فهذا دلت عليه الأدلة، وإلا فما معنى الاسم الأعظم، وما معنى كون آية الكرسي هي أعظم آية في القرآن، وسورة الفاتحة أعظم سور القرآن؟ إنما أطلق ذلك بهذا الاعتبار.

وفي قول ابن كثير: "**وقد جاء في حديث أم سلمة**" هذا بداية الكلام على مسألة أخرى هي وصل البسملة بأول السورة، فهذا أحد الوجوه المعروفة، ولك أن تقطع بأن تقول: بسم الله الرحمن الرحيم ثم تقف ثم تأتي بالحمد لله رب العالمين، وهكذا.

"**قال أبو جعفر بن جرير: معنى {الْحَمْدُ للّهِ} [(٢) سورة الفاتحة] الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد**".

يلاحظ في كلام ابن جرير -رحمه الله- أنه فسر الحمد بالشكر، وهذا يعني أن ابن جرير الطبري -رحمه الله- لا يفرق بين الحمد وبين الشكر، فيرى أنهما بمعنى واحد، فالحمد هو الشكر، وهذا قول لطائفة من أهل العلم.

---

[٧] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قوله -عز وجل- : {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْراَهِيمَ} [(٥١) سورة الحجر] (٣١٩٢) (ج ٣ / ص ١٢٣٣) ومسلم في كتاب الفضائل - باب من فضائل إبراهيم الخليل -صلى الله عليه وسلم- (١٥١) (ج ٤ / ١٨٣٩).

"**بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعددها غيره أحد في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذَّاهم من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً.**

وقال ابن جرير -رحمه الله-: الحمد لله ثناءٌ أثنَى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله".

تفسير ابن جرير الحمد بالثناء يدل على أنه لا يفرق بين الحمد وبين الثناء، بمعنى أن ابن جرير -رحمه الله- يرى أن الحمد بمعنى شكر الله -عز وجل- والثناء عليه، فيفسر الحمد بالشكر ويفسره بالثناء.

وكثير من أهل العلم يفرقون بين الحمد وبين الشكر، وبعضهم يفرق بين الحمد وبين الثناء.

وهنا يقول: "**وفي ضمنه أمْرُ عبادِه**، أو **في ضمنه أَمرَ عبادَه أن يثنوا عليه**" أي في ضمن الحمد، بمعنى أنه حينما قال: **{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [(٢) سورة الفاتحة] فهذه الصيغة ليست أمراً وإنما هي صيغة خبر لكنه يتضمن تعليم عباده أن يحمدوه، بأن يقولوا: الحمد لله، فحينما قال ذلك فهو يعلمهم كيف يقولون، وهذا هو معنى أن في ضمنه الأمر بحمده، فالصيغة صيغة خبر، لكن هي تعليمٌ من الله لعباده كيف يحمدوه.

"**قال: وقد قيل: إن قول القائل الحمد لله ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه**".

ابن جرير هنا أشار إلى القول الآخر فقال: **وقد قيل**... وهو جاء بهذه الصيغة كأنه يضعف ذلك، وهذا واضح من كونه ذكر المعنى الآخر أولاً.

قال: "**وقد قيل إن قول القائل: الحمد لله ثناءٌ عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، والشكر ثناءٌ عليه بنعمه وأياديه**" يقصد بهذا أن الشكر يكون على النعمة المتعدية إلى المخلوق، والحمد على هذا القول يكون بإضافة المحامد لله -عز وجل- وذكره بأوصاف الكمال -تبارك وتعالى-.

فإذا أثنيت على إنسان بصفاتٍ لازمة مثل: الهيبة، والعظمة، وما أشبه ذلك، فهذا حمد، وإذا أضفت إليه، أو أثنيت عليه على صفة متعدية كالكرم فإن هذا يكون من قبيل الشكر، ولهذا فإن بعض أهل العلم يفرق بين الحمد والشكر، فيقول: الحمد إنما يكون باللسان، ويكون على النعمة وغيرها أي على كل حال، والشكر لا يكون إلا على نعمة، ويكون باليد واللسان والجوارح، فصار بينهما عمومٌ وخصوص، كل واحد منهما أعم من الآخر من جهة وأخص من جهة، هذا وجه من وجوه التفريق بين الحمد والشكر.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٧)

مالك يوم الدين - إياك نعبد وإياك نستعين

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر في الفرق بين الحمد والشكر: "والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول حمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال شكرته لفروسيته، وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إليَّ، هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قول ابن جرير ومن وافقه بأن الشكر والحمد بمعنىً واحد لا فرق بينهما، وهو قولٌ معروف، ومن فرّق -كالحافظ ابن كثير -رحمه الله- اختلفت أقوالهم، فمن أشهرها ما ذكره هنا من أنهما يفترقان إذا ذكرا معاً.

وعلى كل حال يكون الحمد أعم من جهة وأخص من جهة، فالحمد أعم من جهة أنه يكون على النعمة وعلى غير النعمة، فالله محمودٌ على كل حال -على النعمة وغير النعمة- ويكون على الصفات المتعدية والصفات اللازمة، فالله -عز وجل- يحمد لما يتصف به من أوصاف الكمال، يحمد لعظمته ولمجده ولجلاله ولعزته، وهذه صفات لازمة، ويحمد لكرمه ولرحمته وجوده وعطائه وبره وإحسانه وإفضاله، وهذه كلها أوصاف متعدية.

وأما الشكر فيقولون: إنه لا يقع إلا بإزاء نعمة، أي بمقابل نعمة، فهو من هذه الناحية أخص من الحمد، ويكون على الأوصاف المتعدية؛ لأن الإنعام إنما يكون بالوصف المتعدي، مثل الرزق، والكرم، والإحسان وما أشبه ذلك، فمن جهة ما يقعان عليه يكون الحمد أعم من الشكر، ومن جهة مورد الحمد والشكر فإنه يكون بالنسبة للحمد أخص؛ لأن الحمد إنما يكون باللسان، وهذا ولا بد مع مواطأة القلب حتى لا يكون منافقاً، وأما الشكر فيكون باللسان وبالقلب -أي باستحضار النعمة وشكرها بالقلب- ويكون أيضاً بالجوارح.

أفادتكم النعماء مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضمير المحجبا

أي: إنعامكم وإفضالكم أثر شكراً بالقلب واللسان والجوارح، فيلهج اللسان بالشكر، والجوارح بالخدمة كما يقال، كأن تصلي وتحسن إلى الناس ونحو ذلك، قال تعالى: **{اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا}** [(١٣) سورة سبأ].

فهذا من أشهر الفروق عند من فرق بين الحمد والشكر، وبعضهم يقول غير هذا، وعلى كل حال ليس هذا مقام تطويل.

"وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الحمد نقيض الذم".

من الفروقات أن يقال: إن الحمد نقيضه الذم، والشكر نقيضه الكفر.

"تقول حمدت الرجل أحمده حمداً ومحمدة، فهو حميدٌ ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر.

وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال شكرته وشكرت له، وباللام أفصح، وأما المدح فهو أعم من الحمد.."

قوله في الشكر: "**هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف**" يعني على الأوصاف المتعدية ويكون بإزاء النعمة.

وقوله: "**هو الثناء على المحسن**" هذا بناءً على تفسير الحمد بإضافة المحامد ونسبتها إلى المحمود، أي أوصاف الكمال، فلا يكون بمعنى الثناء، وإنما الثناء هو إعادة الحمد ثانياً، وكثير من أهل العلم لا يفرق، وبعض أهل العلم يضيف قيداً آخر في الفرق بين الحمد والشكر وهو قيد يتعلق بقضية الأوصاف أو الكمالات الاختيارية، ولتوضيح معنى الأوصاف الاختيارية نذكر مثلاً الجمال فهو كمال لكنه ليس اختيارياً بالنسبة للإنسان، أما الكرم فهو كمال اختياري، فهذا يذكرونه في الفرق بين الحمد وبين المدح.

يقول: "**يقال شكرته وشكرت له وباللام أفصح**" المشهور باللام وهو الأكثر استعمالاً، قال تعالى: **{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}** [(١٤) سورة لقمان]، وقال تعالى: **{وَاشْكُرُواْ لِلّهِ}** [(١٧٢) سورة البقرة]، ويأتي متعدياً بنفسه كما في قوله تعالى: **{وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ}** [(١١٤) سورة النحل].

وفي قول الشاعر:

شكرتك إن الشكر حبلٌ من التقى   وما كل من أوليته نعمة يقضى

فقال شكرتك، مع أن الغالب في الاستعمال أن يقول: شكرت لك.

"وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللميت وللجماد أيضاً، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم".

يعني أن الحمد أو الشكر لا يكون للحيوانات ولا للجمادات، فلا تقول: حمدت هذه السارية، ولا تقول: حمدتُ هذه الدابة، وإنما يكون لمن يعقل فتقول: حمدتُ زيداً، وتقول: فلان يحمد صاحبه، وفلان يشكر صاحبه، وما أشبه هذا.

وبالنسبة للمدح فإنه يكون على الصفة اللازمة والمتعدية، ويكون بسبب النعمة والإنعام والإفضال، ويكون من غير ذلك، ويكون على الأوصاف الاختيارية وعلى الأوصاف غير الاختيارية، فتُمدح المرأة لجمالها، ولطولها، ولسواد عينيها، وما أشبه ذلك، لكنها لا تشكر على هذا، فلا يقال: شكراً على بياض وجهك وطول قامتك، ولكن يمكن أن تمدح على ذلك، فالمدح سائغ على أوصاف الكمال الاختيارية وغير الاختيارية وعلى الأوصاف اللازمة والمتعدية، فتَمدح المرءَ لعزته وهيبته، وتمدحه أيضاً لكرمه وبره وجوده وإحسانه، وهكذا. وكذلك قد تَمدح الصِّبْغَ، وتمدح الخشب، وتمدح الجهاز، وتمدح اللباس، وفلان يمدح السيارة الفلانية، وتمدح نوعاً من الأشجار، وهكذا فهو أعم.

"ورواه غير أبي معمر عن حفص فقال: قال عمر لعليٍّ -رضي الله تعالى عنهما- وأصحابه عنده: لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر قد عرفناها، فما الحمد لله؟ قال عليٌّ: كلمة أحبها الله تعالى لنفسه.."

قد يقول قائل: إنه لم يذكر معنىً جديداً في تعريف الحمد في قوله: كلمة أحبها الله لنفسه، والسؤال هو عن معنى الحمد، وهذا يدل على نبذ السلف للتكلف، فهم أبعد ما يكونون عن التكلف، والتشقيق لم يكن من أفعالهم وإنما وجد هذا عند المتكلفين من بعدهم، ونحن مهما حاولنا أن نتخلص من هذا الأمر إلا أنه للأسف أمرٌ كأنا طبعنا عليه، حيث تجد الواحد منا يتلقى العلم بهذه الطريقة، ثم لا يستطيع أن ينفك من إسارها.

"قال عليٌّ: كلمة أحبها الله تعالى لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن تقال، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد الحمد لله قال: شكرني عبدي، رواه ابن أبي حاتم".

ابن عباس إمام في التفسير وفي اللغة ومع هذا لم يفرق بين الحمد والشكر، وعلى كل حال فالأمر في هذا سهل، والمقصود أن نشتغل بحمد الله والثناء عليه وشكره، وهذا يتحقق بأن يلهج اللسان بهذه الأمور، ولكن للأسف أنه يغلب علينا الاشتغال بمثل هذه التشقيقات مع التقصير في العمل.

"وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن الأسود بن سريع -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت يا رسول الله، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي -تبارك وتعالى- فقال: ((أما إنّ ربك يحب الحمد))[1] ورواه النسائي.

وروى أبو عيسى الحافظ الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير عن طلحة بن خراش عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله))[2]، وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ))[3].

وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حدثهم ((إن عبداً من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى الله فقالا: يا ربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله وهو أعلم بما قال عبده: ماذا قال عبدي؟ قالا: يا رب إنه قال: لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها))[4].

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، كما جاء في الحديث: ((اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله..)) الحديث[5].

---

[1] - أخرجه أحمد (١٥٦٢٤) (ج ٣ / ص ٤٣٥) وضعفه شعيب الأرنؤوط.

[2] - أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات - باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨٣) (ج ٥ / ص ٤٦٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١١٠٤).

[3] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب - باب فضل الحامدين (٣٨٠٥) (ج ٢ / ص ١٢٥٠) وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٥).

[4] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب - باب فضل الحامدين (٣٨٠١) (ج ٢ / ص ١٢٤٩) وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه برقم (٣٨٠١).

[5] - أخرجه أحمد (٢٣٤٠٣) (ج ٥ / ص ٣٩٥) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٩٦٣).

والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله، ولا يستعمل الرب لغير الله بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله -عز وجل- وقد قيل: إنه الاسم الأعظم".

قال: "**والرب هو المالك المتصرف** ثم قال: **ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح وكل ذلك صحيح في حق الله**" لو قيل: الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشئون خلقه، المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة وهو السيد بحيث تُذكر هذه المعاني جميعاً كان أولى؛ فهذه كلها ثابتة لله -تبارك وتعالى-، فالمعاني التي يذكرونها في معنى الرب هي نحو سبعة معانٍ كلها ثابتةٌ لله -عز وجل- ومنها أن يقال الرب لصاحب الشيء، قال تعالى: **{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ}** [(١٨٠) سورة الصافات]، فرب العزة معناه صاحب العزة، وكذلك الرب تطلق بمعنى السيد، فالرب هو السيد والمالك كما قال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وفي الحديث: **((لا يقل أحدكم: أطعم ربك))**[6] بمعنى سيدك.

ومن معاني الرب كذلك أي المربي لخلقه بالنعم الظاهرة والباطنة وبأنواع التربية المعنوية بما يفيض عليهم من الرحمات، وألوان الإحسان المعنوي من هدايتهم للإيمان، وإرسال الرسل، وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون، وكذلك ما يفيض عليهم من ألوان اللذة والسرور بمعرفته -سبحانه وتعالى-، وما يلهمهم من الصبر ونحو ذلك، كما يربيهم التربية الحسية المتمثلة في نقلهم من طورٍ إلى طور في بطون أمهاتهم، ثم يخرجهم من بطون أمهاتهم، وما يكلؤهم به من ألوان النعم وهكذا، فهذا كله من تربيته لهم -سبحانه وتعالى- فالرب يأتي لهذه المعاني كلها.

وإذا نظرت في الرب باعتبار أنه السيد يكون ذلك صفة ذات، وإذا نظرت إليه باعتبار أنه المتصرف المربي لخلقه وما أشبه ذلك فهي صفة فعل، وبهذا نعرف أن أوصاف الله -عز وجل- منها ما يكون صفة ذات باعتبار، ويكون صفة فعل باعتبارٍ آخر، ومن الاعتبارات في ذلك تنوع القراءات وسيأتي ذكر هذا في قوله تعالى: **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [(٤) سورة الفاتحة] فعلى قراءة "ملك" يكون ذلك صفة ذات، وعلى قراءة "مالك" يكون صفة فعل.

قوله: "**وأما الرب فلا يقال إلا لله -عز وجل-**" يعني هذا إذا أطلق من غير قيد، فأما قولك: أنا رب الإبل، أنا رب الدار، أنا رب السيارة فهذا لا إشكال فيه، لكن الرب هذا لا يطلق إلا على الله -عز وجل-.

وقد جاء في بعض شعر العرب إطلاق الرب على بعض البشر من الناس، وهذا تعدٍّ وتجاوز بالمخلوق قدره، فهذا لا يجوز بحالٍ من الأحوال، ووقوعه في شعر بعض العرب حاصل لكنه نادر.

"والعالَمين جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله -عز وجل- والعالَم جمع لا واحد له من لفظه".

العالَمين جمع عالم، هذا هو المشهور، وبعضهم يقول: إن هذا اسم جمع وليس جمعاً للعالَم لكن هذا القول فيه نظر.

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب العتق - باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي (٢٤١٤) (ج ٢ / ص ٩٠١) ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها - باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد (٢٢٤٩) (ج ٤ / ص ١٧٦٤).

يقول: "**والعالَم جمع لا واحد له من لفظه**" فالعالَم جمعٌ، وعالَمين جمع عالَم، فإذا كان العالَم جمع لا واحد له، فالعالَمين جمع الجمع، وجمع الجمع لا واحد له من لفظه.

"**والعوالم أصناف المخلوقات في السماوات وفي البر والبحر، وكل قرنٍ منها وجيل يسمى عالَماً أيضاً**".

يعني أن العالَمين جمع للجمع ليشمل ذلك سائر الأصناف، فالملائكة عالَم، والجن عالَم، والطيور عالَم، وهكذا.

وكذلك أصناف الأمم أيضاً يقال لهم: عالَم، فنقول مثلاً: العالَم العربي، فهذا إطلاق صحيح في اللغة، وكذلك الأجيال والقرون، فكل جيل يقال له: عالَم، فالله رب العالَمين، رب الأولين والآخرين، رب السماوات والأرض وما بينهما، وأحسن ما يفسر به القرآن القرآن، وقد قال موسى -صلى الله عليه وسلم- جواباً لفرعون لما قال له: **{وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ* قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}** [(٢٣-٢٤) سورة الشعراء]، فالعالَمين يشمل ذلك جميعاً، أي: العالَم العلوي والعالَم السفلي وما بينهما بكل ما يحويه من المخلوقات.

"**قال الفراء وأبو عبيد: العالَم عبارة عما يعقل، وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم عالَم**".

هذا قول لبعضهم، ولكنه ليس محل اتفاق.

"**وعن زيد بن أسلم وأبي محيصن: العالَم كل ما له روح ترفرف**".

وهذا القول أعم أوسع، فذاك يقول: ما كان له روح ويعقل، وهذا يقول: ما كان له روح ترفرف، فيدخل فيه الحشرات والطيور والحيوانات.

"**وقال قتادة: رب العالمين كل صنف عالَم، وقال الزجاج: العالَم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة، قال القرطبي: وهذا هو الصحيح، إنه شامل لكل العالَمين، كقوله: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ* قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ} [(٢٣-٢٤) سورة الشعراء] والعالَم مشتق من العلامة، قلت: لأنه علَم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته**".

هذا هو المشهور عند أهل اللغة وعند المفسرين وهو أن العالَمين جمع عالَم، والعالَم مشتقٌ من العلامة؛ لأنه يدل على قدرة الصانع -سبحانه وتعالى- وعلمه.

وبعض أهل العلم يقول: إن العالَم مشتقٌ من العِلم؛ وذلك أنه نتج عنه وصدر عنه، فإن هذا الخلق لا يمكن أن يصدر إلا عن علم، ثم إن الإحاطة به لا يمكن أن تتأتى إلا بالعلم، فهو يعلم أحوال هذا العالَم.

ويقول بعضهم ممن قالوا: إنه مشتق من العِلم يقولون: لأن هذه المخلوقات توصف بالعلم، وهذا يأتي على قول من يحصرها بمن يعقل إلا على وجهٍ من التكلف وذلك إذا قلنا: إن ما لا يعقل من هذه الأشياء قد أعطاها الله علماً يناسبها.

"**وقوله تعالى: {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} [(٣) سورة الفاتحة] تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن الإعادة، قال القرطبي: إنما وصف نفسه بـــ {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} [(٣) سورة الفاتحة] بعد قوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة] ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب، كما قال تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ} [(٤٩-٥٠) سورة الحجر]**".

قوله: "**ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب**" وجه الترهيب في قوله: **{رَبِّ الْعَالَمِينَ}** هو أن الرب هو السيد، فرب العالمين أي هو سيدهم ونواصيهم بيده، والسيد لا شك أنه يُهاب وتخاف سطوته ويرهب جانبه، فلذلك جاء بعده بـــ **{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}** [(٣) سورة الفاتحة]، أي ليجمع لهم بين الترغيب والترهيب، ولكن ذلك أوضح بما بعده أي في قول الله -عز وجل-: **{مَالِك يَوْمِ الدِّينِ}** [(٤) سورة الفاتحة] فيوم الدين هو يوم الجزاء والحساب، الذي قال الله -عز وجل- فيه: **{وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ}** [(١١١) سورة طــه]، ويقول الله -عز وجل- فيه: **{لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** [(١٦) سورة غافر]، فلا أحد يدعي الملك في ذلك اليوم، بل الملوك كلهم خاضعون ذليلون في ذلك اليوم، فلذلك يكون قوله تعالى: **{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [(٣-٤) سورة الفاتحة] أوضح في الجمع بين الترغيب والترهيب.

وهذه الآيات فيها من الدلالات على معانٍ من علم الله -عز وجل- وعدله وصفات كماله الشيء الكثير.

"وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٦٥) سورة الأنعام]، قال: فالرب فيه ترهيب والرحمن الرحيم ترغيب.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد))[٧]".

نخرج من هذا بأن ربوبية الله -عز وجل- مبنية على الرحمة، وليست مبنية على العسف والقهر ومجرد التسلط، وإنزال البأس والعقوبات بهؤلاء المخلوقين، إنما هي ربوبية مبنية على الرحمة، فإذا عرف العبد ذلك سكن إلى ربه -تبارك وتعالى- وأقبل عليه وأحبه.

"{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه؛ لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين؛ لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بإذنه".

هذا جواب على سؤال تقديره: إن الله مالك للدنيا والآخرة، فلماذا خصَّ يوم الدين بالذكر؟

الوجه الأول في الجواب أن يقال: إنه قال قبله: **{رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [(٢) سورة الفاتحة] فهذا فيه ملك الدنيا والآخرة، فهو رب العالمين وسيدهم بإطلاق، ثم خص يوم الدين لعظمته، أو لأنه هو اليوم وما دونه كساعة، كما قال تعالى: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}** [(٥٥) سورة الروم]، أو لأنه هو الغاية وما قبله من الأيام مراحل تطوي الناس إليه، فإذا وصلوا إلى ذلك اليوم فهو اليوم الأبدي السرمدي، وفي ذلك اليوم يقول الله -عز وجل-: **{لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}** [(١٦) سورة غافر] فلا أحد يجيب، ثم يقال: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [(١٦) سورة غافر] فلا أحد يدعي أن له شيئاً من الملك في ذلك اليوم.

فالحاصل أن الله -عز وجل- أفرد يوم الدين لشيء من هذه الاعتبارات أو لغيرها فالله أعلم، فهذه وجوه يذكرها أهل العلم.

---

[٧] - أخرجه مسلم في كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٥) (ج ٤ / ص ٢١٠٩).

"وإنما أضيف إلى يوم الدين؛ لأنه لا يدعي أحدٌ هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [(٣٨) سورة النبأ]، وقال تعالى: {وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [(١٠٨) سورة طــه]، وقال تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِه فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [(١٠٥) سورة هود]، وقال الضحاك: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] يقول لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملكهم في الدنيا.

قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر".

يعني أن الدِّين هو الجزاء، ومنه كما تدين تدان، قال تعالى: **{إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [(١٦) سورة الطور]، ومنه قول الشاعر: دنّاهم كما دانوا، بمعنى جزيناهم كما فعلوا أو كما عاملونا، وهذا معروف ومشهور.

"والمَلِك في الحقيقة هو الله -عز وجل- قال الله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ} [(٢٣) سورة الحشر].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً: ((أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك، ولا مالك إلا الله))[٨].

وفيهما عنه -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟))[٩].

وفي القرآن العظيم: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [(١٦) سورة غافر]، فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز، كما قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا} [(٢٤٧) سورة البقرة] {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ} [(٧٩) سورة الكهف] {إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا} [(٢٠) سورة المائدة]، وفي الصحيحين: ((مثل الملوك على الأسرة))[١٠]".

قوله عليه الصلاة والسلام-: **((مثل الملوك على الأسرة))** هذا في الجيش الذي يركب البحر غازياً في سبيل الله، وعلى كل حال فإن الملك في الدنيا ملكٌ محدود إنما يكون على فئةٍ من الناس، وفي رقعةٍ محدودة، ولأجلٍ محدود، فمن أعطي شيئاً من الملك فإنه يسلب منه لا محالة إما بالموت أو العزل، وصاحب هذا الملك كان فاقداً له في الأصل، ثم إنه يعتوره من ألوان النقص والعبودية ما لا يخفى، كما قال شيخ الإسلام في كتاب "العبودية: تجد الرجل ملكاً في الظاهر وهو عبدٌ ذليلٌ لمن لا يقوم ملكه إلا بهم في الباطن.

---

[8] – أخرجه البخاري في كتاب الأدب – باب أبغض الأسماء إلى الله (٥٨٥٣) (ج ٥ / ص ٢٢٩٢) ومسلم في كتاب الآداب – باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك (٢١٤٣) (ج ٣ / ص ١٦٨٨).

[9] – أخرجه البخاري في كتاب الرقاق – باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦١٥٤) (ج ٥ / ص ٢٣٨٩)ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٧٢٢٧) (ج ٨ / ص ٤٢).

[10] – أخرجه البخاري في كتاب فضل الجهاد والسير – باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء (٢٦٣٦) (ج ٣ / ص ١٠٢٧) ومسلم في كتاب الإمارة – باب فضل الغزو في البحر (١٩١٢) (ج ٣ / ص ١٥١٨).

ولهذا يقول الله -عز وجل- في سورة البقرة في آية الكرسي: **{مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}** [(٢٥٥) سورة البقرة]، أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه لكمال عظمته وملكه؛ لأن ملوك الدنيا يُشفع عندهم من غير إذن، فهم لا يُستأذنون عند الشفاعة، وقد يقبلون ذلك وهم لا يرغبون فيه إما خوفاً من غائلة من الشافع ومن تنكره لهم؛ لأن ملكهم لا يقوم إلا به، أو لحاجتهم إليه في مصالح أخرى، أو حياءً منه وحرجاً وخجلاً، أما الله -عز وجل- فلا أحد يستطيع أن يمارس عليه ضغوطاً، أو يُحرَج من أحد أو يخاف من أحد، أو يضطر لقبول شفاعة أحد؛ لأنه يحتاجه في أمور أخرى حتى لا يرده، وما أشبه ذلك، بل ملكه -تبارك وتعالى- كامل ليس فيه نقص، بينما في الدنيا تجد الملك يعتوره أشياء من هذا النقص، ثم إن الذي يهب ذلك أولاً وآخراً هو الله -عز وجل- ولهذا يقول الله -عز وجل-: **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [(٢٦) سورة آل عمران].

"والدِّين الجزاء والحساب، كما قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ} [(٢٥) سورة النـــور]، وقال: {أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} [(٥٣) سورة الصافات] أي مجزيون محاسبون.

وفي الحديث: ((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت))[11] أي حاسب نفسه، كما قال عمر -رضي الله تعالى عنه-: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم، {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [(١٨) سورة الحاقة][12]".

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة]، والعبادة في اللغة من الذلة، يقال طريق معبد وبعير معبد أي مذلل، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف".

قوله: "**وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف**" هذه تسمى أركان العبادة، والعبادة تطلق في المعنى الشرعي على أمرين، الأمر الأول: بالنظر إلى فعل العبد، والثاني: بالنظر إلى المفعولات والأعمال التي تعبَّد الله -عز وجل- الناس بها.

فإذا قلنا: إن العبادة اسمٌ جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فهذا بالاعتبار الثاني أي باعتبار المفعولات والأعمال التي شرعها الله -عز وجل- لعباده ليتقربوا بها إليه.

وإذا نظرنا إلى العبادة بالاعتبار الأول، أي باعتبار أنها نفس فعل العبد الذي هو صفة من صفاته، نقول: إن العبادة هي الانقياد لله -عز وجل-، بمعنى الإسلام، أي إسلام الوجه لله -تبارك وتعالى- والخضوع له بالطاعة، يعني فعل العبد لا نفس العبادات التي شرعها الله -عز وجل-؛ لأن العبادة مصدر، تارةً يراد بها المفعول، وتارةً تطلق على نفس الفعل، كما تقول القرآن يطلق على نفس المقروء الذي هو الكتاب الذي بين أيدينا، ويطلق على القراءة، وكذلك الوحي يطلق على هذا القرآن أنه وحي، يعني ما نتج عن الإيحاء وهو هذا الكتاب، وتارةً يطلق على نفس العملية التي هي الإيحاء، فتارةً يطلق على هذا المعنى، وتارةً يطلق على المعنى الآخر، فهما إطلاقان معروفان.

---

11 - أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ٢٥ (٢٤٥٩) (ج ٤ / ص ٦٣٨) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب ذكر الموت والاستعداد (٤٢٦٠) (ج ٢ / ص ١٤٢٣) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٤٣٠٥).

12 - انظر مصنف ابن أبي شيبة (ج ٨ / ص ١٤٩).

"وقدم المفعول وهو إياك، وكرر للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك".

هذه قاعدة عامة وهي أن تقديم المعمولات على عواملها يفيد الحصر، وقد يكون التقديم لمعنىً آخر كأن يكون للاهتمام به أو غير ذلك مما يذكره أهل العلم، فقوله هنا: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}** [(٥) سورة الفاتحة] أي لا نعبد إلا إياك، **"أي: لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك".**

لو نظرنا إلى قوله: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}** بدون تقديم وتأخير فسنقول: نعبدك، فيكون الذي تقدم هو الفعل وتقدم الضمير الذي يعود إلى المخلوق، والكاف للخطاب وهي متوجهة إلى الرب -سبحانه وتعالى-، فكأنه قُدِّم الفعل والمخلوق على ذكر الخالق المعبود -سبحانه وتعالى-، فلذلك قال: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**؛ لئلا يتقدم على المعبود شيءٌ سواه، وهذا أليق وأكمل في الأدب.

ونفس هذا الكلام يقال في قوله تعالى: **{وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** [(٥) سورة الفاتحة].

"أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة]، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، وتفويض إلى الله -عز وجل- وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [(١٢٣) سورة هود]، {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [(٢٩) سورة الملك]، {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [(٩) سورة المزمل]، وكذلك هذه الآية الكريمة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة]".

بعض أهل العلم مثل ابن القيم -رحمه الله- يذكر أكثر من عشرة أوجه في وجه تقديم **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}** على **{إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** ويمكن أن تراجع في كتابه مدارج السالكين.

"وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى".

هنا التفات، والالتفات لا شك أنه تفننٌ في الخطاب، وله من الدلالات البلاغية في كل مقامٍ ما يناسبه، وهو في الجملة لا شك أنه أدعى إلى تنشيط السامع، وهو أدلُّ على الفصاحة والبلاغة والقدرة على التفنن بالكلام، فهذا الالتفات تارةً يكون من الغائب إلى المخاطب مثل هنا، فهو يتحدث عن الله -عز وجل- على سبيل الغيبة، الحمد لله هو رب العالمين، هو الرحمن الرحيم، ثم قال: إياك، فتوجه إلى المخاطب، وعلل ذلك هنا فقال: كأنه لما أثنى عليه اقترب منه فناسب أن يوجه الخطاب إليه، **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** [(٥) سورة الفاتحة]، وهذا مثل قوله تعالى: **{حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ}** [(٢٢) سورة يونس]، فالكلام للمخاطب، ثم قال: **{وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ}** [(٢٢) سورة يونس] حيث تحول عكس ما عليه الحال هنا، أي تحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة، وعلى كل حال فالالتفات أنواع، والكلام عن هذا الموضوع يوجد في كتب البلاغة مفصلاً.

"فلهذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] وفي هذا دليلٌ على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجمال صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك، ولهذا لا تصح

صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))[١٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قال: الله: حمدني عبدي، وإذا قال: {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}، قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل))[١٤]"

[13] – أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة – باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (٧٢٣) (ج ١ / ص ٢٦٣) ومسلم في كتاب الصلاة – باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٤) (ج ١ / ص ٢٩٥).

[14] – أخرجه مسلم في كتاب الصلاة – باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٥) (ج ١ / ص ٢٩٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٨)

اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر: "قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة] **يعني إياك نوحد ونخاف ونرجوك يا ربنا لا غيرك، {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** [(٥) سورة الفاتحة] **على طاعتك وعلى أمورنا كلها.**

وقال قتادة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] **يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم، وإنما قدم {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}** [(٥) سورة الفاتحة] **على {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** [(٥) سورة الفاتحة] **لأن العبادة له هي المقصودة".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأقول: العبادة مصدر، فتارةً تطلق على المتعبد به فتكون اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، مثل ما تقول: القراءة والكتابة والرقية والكلام، وما أشبه ذلك من المصادر، فنحن حينما نريد أن نأتي إلى مصدر من هذه المصادر نقول مثلاً: الكلام، القراءة، العبادة، الأكل، وما أشبه ذلك.

فالأكل يطلق على معنيين، حيث يطلق على نفس العملية ويطلق على المأكول، فتقول: خذ هذا الأكل، أو ارفع هذا الأكل.

والكلام يطلق على العملية نفسها ويطلق على المتكلَّم به، فتقول هذا كلام فلان، وهذا كلامك، وكذلك الكتابة تطلق على عملية الكتابة من قِبَلي ومن قِبَلك، وتطلق على المكتوب فتقول هذه كتابة خالد.

وكذلك القراءة تطلق على عملية القراءة من قِبَلي ومن قِبَلك ومن قِبَل فلان، وتطلق على المقروء.

والعبادة تطلق على معنيين: أولهما حركة العبد ونشاطه وفعله الذي يقوم به والذي هو التعبد، وهو صفة من صفاته، وتطلق على عملية التعبد من الأقوال والأفعال وما يتعبد به، فالصلاة عبادة، والصيام عبادة، والحج عبادة، والزكاة عبادة، والذكر عبادة، فهي تطلق على المعنيين، تطلق على نفس فعل العبد وعلى ما يتعبد به، وهي اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

والعبادة تكون بطاعة الله -عز وجل- فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

فهذه التعريفات للعبادة لا تختلف لكنها تارةً تطلق على نفس فعل العبد، وتارةً تطلق على ما يتعبد به.

قال المؤلف: "**قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة] يعني إياك نوحد ونخاف ونرجوك يا ربنا**" {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} هذا هو الشق الأول من كلمة الإخلاص المتضمنة للنفي والإثبات، فهذا حظ الإثبات، ومثل هذا قوله تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [(١٢٣) سورة هود]، ومفهوم المخالفة يؤخذ منه الشق الآخر الذي هو النفي، فحينما تقول: إياك نعبد يدل على الحصر، ومفهوم مخالفته أننا لا نعبد غيرك.

فالشارع تارةً ينهى عن الشرك كما في قوله تعالى: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ} [(١٣) سورة لقمان]، وتارةً يأمر بالتوحيد، كقوله تعالى: {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ} [(١٤) سورة الزمر]، وتارةً يذكر الأمرين معاً، وتجمعهما كلمة التوحيد لا إله إلا الله.

والمراد بذلك من حيث منطوق الكلام أما من حيث المفهوم فإن {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة] يشتمل بمنطوقه على التوحيد وإفراد الله -عز وجل- بالعبادة وبمفهومه على الشق الآخر.

قال: {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] أي على طاعتك وعلى أمورنا كلها، نستعين على كل شيء من أمور الدنيا والآخرة، ومعنى نستعين: السين والتاء للطلب، أي نطلب العون منك لا من غيرك.

"**وقال قتادة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم**" يعني أن ذلك يتضمن تعليماً من الله -عز وجل- وأمراً وإن كانت الصيغة صيغة خبر، لكنه تعليمٌ من الله -عز وجل- لعباده أن يوحدوه وأن يفردوه في العبادة وفي الاستعانة.

"**وإنما قدم {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} على {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم**".

هناك وجوه أخرى كثيرة جداً ذكرها الحافظ ابن القيم -رحمه الله- في وجه تقديم العبادة على الاستعانة في المدارج، والحاصل أن مما ذكر هذا الوجه.

ومن الأوجه التي ذكرها في ذلك قوله: الاستعانة حظ العبد والعبادة حظ الرب، وما كان للرب فهو أولى وهو مقدم، ومن ذلك أن العبادة أشرف وأعظم وأشمل وأكمل من الاستعانة؛ لأن العبادة لا تكون إلا من مخلص والاستعانة تكون من المخلص ومن غيره، ثم إن العبادة تتضمن الاستعانة؛ لأن الاستعانة لونٌ من العبادة، فهي أعم منها والاستعانة أخص، وعلى كل حال فليس المقصود هنا ذكر كل ما قيل في ذلك.

"**وقد سمى الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- بعبده في أشرف مقاماته فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ} [(١) سورة الكهف]، وقال: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [(١٩) سورة الجن]، وقال: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً} [(١) سورة الإسراء]، فسماه عبداً عند إنزاله عليه، وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به**".

مما يدل على شرف العبادة ومنزلتها أن الله -عز وجل- سمى بها نبيه -صلى الله عليه وسلم- في أشرف المقامات، فلم يذكره باسمه، ولم يذكره بوصفٍ آخر، وإنما ذكره بوصف العبودية، ففي مقام الإسراء قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى} [(١) سورة الإسراء]، وفي مقام الدعوة قال: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [(١٩)

سورة الجن]، وفي مقام الإيحاء وإنزال الكتاب قال سبحانه: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}** [(١) سورة الكهف] وهكذا.

"وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} [(٩٧-٩٨) سورة الحجر]".

هذا كله تابعٌ لما سبق من بيان منزلة العبادة وعظيم شرفها ومكانتها، ومن ذلك أنه يؤمر بها لرفع الضيق؛ حيث إن الله تعالى أرشد نبيه -صلى الله عليه وسلم- إليها؛ ليكون ذلك سبباً لرفع الضيق عنه والحزن.

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ* وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [(٩٧-٩٩) سورة الحجر]".

يعلم من هذا أنه ليس هناك طريق لأولئك الذين يعانون من أمراض الاكتئاب والحزن كطريق التعبد لله -عز وجل- والتقرب إليه بألوان القربات.

والعجيب أن بعض الناس يفهم عكس هذا، فتجدهم يظنون أن سماعهم للقرآن يؤثر فيهم تأثيراً سلبياً لقوته على نفوسهم، وبالتالي يحصل عندهم انتكاسة في المرض، بل إن بعض الأطباء يطلبون من هؤلاء المرضى أن يناموا الساعات الطوال جداً، فيتركون الصلوات، بل ربما قالوا: لا توقظوه لصلاة الفجر، فكيف يصح ويبرأ من هذا حاله إلا بالتعبد لله -عز وجل-!!.

"{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] لما تقدم الثناء على المسئول -تبارك وتعالى- ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال: ((فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل))[1]، وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله، ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة، ولهذا أرشد الله إليه؛ لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى -عليه السلام-: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} [(٢٤) سورة القصص]، وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسئول، كقول ذي النون -عليه السلام-: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [(٨٧) سورة الأنبياء]".

في قول موسى -صلى الله عليه وسلم-: **{رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}** [(٢٤) سورة القصص] هذا فيه تعريض بالمسألة، هو يخبر عن فقره وحاجته، فهو تعريض بالمسألة، أما ترك السؤال أصلاً فهذا ليس بمشروع، وما ورد فيه لا يصح، ولذلك فالله -عز وجل- يحب من عبده أن يسأله، وأن يتقرب إليه، وأن ينطرح بين يديه وأن ينكسر، فهذه من العبادات التي يحبها الله -عز وجل-.

وجه الإتيان بصيغة الجمع في قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهدِنَا}:

هذا المقام هو مقام إعلان العجز والضعف والافتقار والعبودية لله -عز وجل- وهذه النون في نعبد ونستعين واهدنا هي للجمع وليست لتعظيم المرء نفسه إذ لا يصح في هذا المقام أن يعظم الإنسان نفسه، لذلك يقال: إن

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٥) (ج ١ / ص ٢٩٦).

الإتيان بصيغة الجمع هنا كان لأمرين هما: أولاً: لدفع العجب عن النفس وذلك من جهة أنه لا يجعل من نفسه أنه الذي يحقق العبودية وحده في قوله إياك أعبد وإياك أستعين، وإنما هو واحد من هؤلاء العباد.
الثاني: أن ذلك أبلغ في التعظيم لله -عز وجل- حيث إن العابدين لله -عز وجل- كثير، فإذا قال: إياك نعبد فهذا أبلغ من إياك عبدت؛ لأنك لو أردت أن تمدح ملكاً وقلت: أنا وحدي الذي أطيعك، وأنا وحدي الذي أحترمك، وأنا وحدي الذي أقوم على خدمتك وطاعتك والانقياد لما تأمر به يكون هذا ذماً وليس مدحاً.
وبعض العلماء فهم أن هذا تعبير عن حاله وعن حال غيره، وعلى كل حال سواء قلنا هذا الجواب أو غير هذا الجواب فهذا أسلوب عربي معروف، يعبر به الصغار والكبار، الفقير والغني والكبير، والمعظم لنفسه، والبائس المعترف بفقره وحاجته، كلهم يعبرون بهذه الطريقة، ولا يقصدون التعظيم إطلاقاً.
"وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول، كقول الشاعر:

أأذكـــر حـــاجتي أم قـــد كفـــاني	**حيـــاؤك إن شـــيمتك الحيـــاء**
إذا أثنـــى عليـــك المـــرء يومـــاً	**كفـــاه مـــن تعرضـــه الثنـــاء**

الهداية هاهنا الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا.."
قوله: "**الهداية هاهنا الإرشاد والتوفيق**" الهداية تطلق على المعنيين، لكن قوله في هذه الآية: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ}** [(٦) سورة الفاتحة] يشمل المعنيين جميعاً، هداية الإرشاد وهداية التوفيق، فهداية الإرشاد يدخل فيها الهداية إلى سلوك طريق العلم، فالله لا يعبد إلا بما شرع، ويدخل فيه أيضاً أن يهديه الله -عز وجل- للعلم الصحيح إذ إن الكثيرين لا يوفقون لطلب العلم أصلاً، فهم بمنأى عنه، ومن يسلك طريق العلم منهم من يقال له: ليتك ثم ليتك ما عرفت؛ لأنه يدرس ويقرأ ويبحث، ويخرج بنتائج معكوسة، فما كل الناس يوفق إلى معرفة الحق، ولذلك العبد مطالب أن يدعو ربه أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، وإذا وفق إلى معرفة الحق فهو مطالب أن يدعو ربه أن يوفقه للعمل به، فكثير من الناس يعلمون لكنهم لا يعملون، ثم إذا عمل به هو بحاجة إلى تثبيت على هذا العمل؛ لأن الكثيرين يعملون فترةً ثم بعد ذلك يتركون العمل.
فعندنا هداية إلى العلم، والعلم لا شك أنه مخالف لداعية الهوى في نفس الإنسان؛ لأن العلم يحتاج إلى مشقة، تترك النوم، تتعنى، تتعب في الجلوس، وطلب العلم أيضاً فيه تواضع وكثير من الناس لا يوفقون؛ لأنهم لا يريدون أن يراهم الناس وهم جالسون في مجلس العلم؛ لأن الواحد منهم يربأ بنفسه عن التعلم، والواقع أنه لا أحد كبير على العلم، وليس هناك درس تربوي عملي، وإنما الأفضل لتربية النفس أن يجلس الإنسان ليتعلم، فلا يوجد شيء أنفع للإنسان من العلم؛ فالمتعلم يعرف قدره ويتعلم ولن يخلو من فائدة، وتحفُّه الملائكة، ويعلم نفسه الأدب والتواضع، والعلم إنما يكون في الأرض كالمطر للأرض المطمئنة.

وإلا فالعلم حربٌ للفتـــى المتعـــالي	كالـــسيل حـــربٌ للمكـــان العـــالي

فالعبد بحاجة إلى هذا؛ لأن الهوى يدفعه إلى خلاف ذلك من الإخلاد إلى الراحة والكسل فيبقى جاهلاً، وتجد أن تلاميذ تلاميذه يخرجون أحسن منه أضعاف المرات، حيث تجد شاباً صغيراً عمره ١٥ سنة ما شاء الله قد أتقن القرآن، وحفظ بعض المتون، ويعرف من المسائل والعلم ما لا يعرفها أستاذه الذي هو أكبر منه بكثير.

فالناس يحتاجون إلى هذه الهداية، ويحتاجون إلى هداية من ناحية العمل بالعلم، فكثير من الناس ليست مشكلتهم الجهل في تركهم الصلوات وإنما المشكلة أنهم لا يعملون، ثم إنهم بحاجة إلى التثبيت على العمل أيضاً حتى يختم لهم بهذا، وهكذا يحتاجون إلى ألوان هدايات أخرى، وهناك أشياء أخرى ليست داخلة في هذا وإنما تدخل في عموم سؤال العبد ربه الهداية لغير هذا المقام، وهي الهدايات الأخروية عند سؤال الملكين وعند الحساب بحيث يُلهَم حجته، وكذلك حينما يكون على الصراط بحيث يهدى إلى الجنة، ويهدى إلى منزله في الجنة، نسأل الله الهداية والتوفيق..

"وقد تعدَّى الهداية بنفسها كما هنا: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] فتضمّن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا".

التضمين كما سبق هو على نوعين: تضمين الحرف معنى الحرف -أعني حروف الجر- وتضمين الفعل أو ما يقوم مقامه فعلاً آخر أو معنى فعلٍ آخر، مثل هنا: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة] فمعناها إذا عديت بنفسها ألهمنا ووفقنا وما أشبه ذلك، وهذا أبلغ، وهو داخلٌ تحت عموم قولنا: إن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة..

"**{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [(١٠) سورة البلد]، أي بينا له الخير والشر".**

هداية الإرشاد تكون بـــ"إلى" أي هديناه إلى الصراط المستقيم، وهنا لما قال: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة] معناه ألهمنا أي وفقنا وارزقنا سلوكه واتباعه.

وقد تعدى بـــ"إلى" كقوله تعالى: {اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٢١) سورة النحل] وقال تعالى: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [(٢٣) سورة الصافات] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٢) سورة الشورى]، وقد تُعدَّى باللام كقول أهل الجنة: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} [(٤٣) سورة الأعراف]، أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً".

هذه ثلاثة ألوان في تعدية فعل الهداية، إما بنفسه فهو مضمنٌ معنى وفقنا، وإما بـــ"إلى" فهو بمعنى الدلالة، وإما باللام فهو بمعنى التوفيق.

وبعض العلماء يذكر معاني أخرى مع هذه التعديات المختلفة، والقاعدة في هذا الباب هي أن الفعل الذي تتعدد تعديته يكون له مع كل حرفٍ معنى يناسب ذلك الحرف، فمثلاً في قوله تعالى: **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ}** [(٦) سورة الإنسان] نجد أن الباء في **{بِهَا}** ضمن معنى "من" أي عيناً يشرب منها، والأبلغ في ذلك أن يكون الفعل يشرب بمعنى يرتوي ويلتذّ وما أشبه ذلك وتبقى الباء على حالها.

وليعلم أنه حتى على القول بأن الحرف ضمِّن معنى حرف آخر فإنه يبقى من الحرف الأول شيئاً من معناه، أي أن معناه الأصلي لا يزول بالكلية، وهذا ستأتي له أمثلة إن شاء الله.

"وأما الصراط المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي:

أميـــر المـــؤمنين علـــى صـــراط إذا اعـــوجَّ المـــوارد مـــستقيم

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر، قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل".

يعني أن الأصل في استعمال الصراط أن يكون للطريق المستقيم الواضح، والمستقيم هو أقرب خط يربط بين نقطتين كما يقولون، فالقوس أبعد؛ لأنه متعرج، وأما المستقيم فهو أقرب هذه الخطوط للربط بين هاتين النقطتين.

وعلى كل حال إذا قلنا: إن الصراط بمعنى الطريق الواضح المستقيم، بمعنى إذا راعينا فيه أصل الإطلاق في المعنى فتكون المستقيم صفة كاشفة فقط لا تقيده؛ لأن الصفات منها ما تكون مقيدةٍ مثل قولك: رجلٌ طويل، فإنه قد خرج الرجل المتوسط والقصير، وكقولك: رجلٌ مسلم، يخرج جميع أصناف الكفار، فهذه صفات مقيدة، وأما الصفة الكاشفة فهي التي تبين حقيقة الأمر من حيث هو لا أن تضيف إليه قيداً جديداً كقوله تعالى: **{وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** [(٣٨) سورة الأنعام]، فلا يوجد طائر يطير بغير جناحيه، وهذا بغض النظر عن المعاني البلاغية التي تذكر هنا.

ومن ذلك قوله تعالى: **{يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}** [(٧٩) سورة البقرة]، وقوله تعالى: **{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم}** [(١٦٧) سورة آل عمران].

لكن إذا قلنا: إن الصراط هنا يشمل في استعمال العرب المعوج والمستقيم فهنا تكون المستقيم صفة، يخرج بها الصراط المعوج.

وعلى كل حال فإن بعض أهل العلم يذكر أموراً لا بد أن تتوفر حتى يطلق على الشيء أنه صراط، وفي بعض هذه الأمور التي يذكرها نظر، فابن القيم -رحمه الله- مثلاً يقول: الصراط لا بد فيه من السعة، ولكن هذا ليس بلازم؛ لأن الصراط المنصوب على متن جهنم دقيق جداً.

"قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه، والمراد به الإسلام".

الصراط المستقيم هو الإسلام وهو القرآن، وكل ما ذكره السلف فيه فهو صادقٌ عليه؛ فهذا من اختلاف التنوع، والحاصل أن هذا الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله- من استعمال العرب له في المعوج وغير المعوج يكون ذلك على سبيل التوسع، فالعرب يتوسعون، فالجَلْد قيل في أصله: إنه الضرب بالجلود، ثم توسعوا فيه وصار يطلق على الضرب بكل شيء، سواء كان بالعصا أو بالسوط أو غير ذلك.

وكذلك اليمين، فهو يطلق على الحلف حيث كان الواحد -من العرب- يأخذ بيمين صاحبه توثيقاً لهذا الحلف، ثم توسعوا فيه فصار يطلق على كل حلف ولو لم يكن فيه هذا الوصف.

"روى الإمام أحمد في مسنده عن النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه

فإنك إن فتحته تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم))[٢].

فإن قيل: فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك، فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟".

هذا هو السؤال الذي أجبت عليه قبل قليل، وكثير من العلماء يقولون: إن المقصود بذلك التثبيت، يعني **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة] أي ثبتنا على الصراط المستقيم، وقد سبق بيان أن الهداية أوسع من هذا، فإذا عرف العبد الحق وهُدي إلى العلم الصحيح وعرف الصواب فإنه بحاجة أيضاً إلى معرفة الأفضل في العمل في غير الفروض، وللأسف فإن كثيراً من الناس يقضي عمره القصير في أمورٍ مفضولة، فقد يجلس الإنسان في مثل هذه الساعة مثلاً وهو يقول: أنا أريد أن أذكر الله -عز وجل- فأيهما أفضل أن يذكر ربه أم يشتغل بالعلم؟ قطعاً بلا تردد أن الأفضل له أن يشتغل بالعلم.

ومن الأمور المتفاضلة على سبيل المثال أن يتردد الإنسان بين أن يعتكف في المسجد يوماً أم يذهب في ذلك اليوم لإعانة فلان المسكين أو فلانة الأرملة، فالأفضل بلا شك هو أن يذهب لإعانة المحتاجين، ومثال ذلك أيضاً أن يتردد بين أن يقرأ القرآن أو يعود مريضاً، فعيادة المريض أيضاً أفضل، وأفضل الأعمال إذا أذّن المؤذن هو الذهاب إلى الصلاة.

فهكذا فالعبد بحاجة إلى هذه الهداية المتمثلة في معرفة الأفضل، فالعمر قصير والأعمال كثيرة، وشرائع الإسلام متنوعة، فإذا دخل في بابٍ فربما استغرق وقته وجهده، ولذلك يحتاج أن يوفق للعمل الفاضل، والمقصود أن كل هذه هداياتٌ العبدُ بحاجة إليها.

"فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها".

الهداية ليست محصورة في الثبات عليها؛ فالإنسان تعرض عليه في كل ساعة أشياء وأشياء، وتحدث أمور كثيرة قد يضطرب فيها كثير من الناس، ويتقلبون ويتلونون وتتغير أحوالهم، فالعبد بحاجة إلى هداية في كل هذه الأمور، وأن يعرف الحق ويتبصر به إضافةً إلى ثباته على هذا الحق.

"فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله، فإنه قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ}... الآية [(١٣٦) سورة النساء]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم".

---

[٢] - أخرجه أحمد (١٧٦٧١) (ج ٤ / ص ١٨٢) والحاكم (٢٤٥) (ج ١ / ص ١٤٤) وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن.

في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ} ليس المقصود بذلك الثبات فقط، فالثبات أحد المعاني الداخلة تحته، ولكن شرائع الإيمان كثيرة والأعمال الصالحة كثيرة، فالصلاة إيمان قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [(١٤٣) سورة البقرة] يعني صلاتكم إلى بيت المقدس، ولهذا لما ذكر الله -عز وجل- كفارة الظهار قال بعدها: {ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [(٤) سورة المجادلة]، فلزوم حدود الله -عز وجل- ومنعه من مس هذه الزوجة -مع أن نفسه تطلبها- حتى يعتق رقبة، أو يصوم شهرين متتابعين، أو يطعم ستين مسكيناً -على الخلاف في الإطعام- كل هذا من الإيمان، وإخراج الكفارة من الإيمان وإلا فكيف يعرف الناس عنه أنه أخرج كفارة أو لم يخرج كفارة، فقد لا يعلم به أحد أصلاً أنه ظاهر من امرأته، فالمقصود أن ذلك كله من الإيمان، من تصديق الحكم والإقرار به والانقياد بالتوقف عن الاستمتاع بهذه المرأة أو مجامعتها -على الخلاف في هذا- كل هذا من الإيمان، ولذلك قال بعده: {ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [(٤) سورة المجادلة] أي بعد الكفارة.

فشرائع الإيمان كثيرة، إذ إن الله -عز وجل- أول ما فرض عليهم من الإيمان التوحيد، ثم فرض عليهم الصلاة، ثم فرض عليهم الزكاة -كما في حديث ابن عباس- فلما أقروا بذلك زادهم إيماناً وهكذا إلى آخره، فكل هذه الأشياء داخلة في الإيمان، وكل شيء مما شرعه الله -عز وجل- يجب على الإنسان أن ينقاد له، ويسلم به، وأن يعمل به إن كان واجباً، وهذا من الإيمان، فانقياده وتسليمه إيمان والعمل بالحكم إيمان.

"وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} [(٨) سورة آل عمران]، فمعنى قوله تعالى: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [(٧) سورة الفاتحة].."

قول ابن كثير: "**استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره**" هذا معنى ثبِّتنا وهو نوعٌ منها يقوله من استكمل جميع أنواع الهدايات السابقة، ولا يمكن للعبد أن يستكملها؛ لأنه بين أمورٍ هو بصددها وبين أمورٍ يستقبلها أصلاً، فمثلاً هؤلاء الناس الذين يسألون عن مساهمات، وأشياء، أليسوا بحاجة إلى هداية حتى يعرفوا الصواب في هذه المسائل بحيث يدخلون فيها أو لا يدخلون؟

وكذلك من يعرض له خوف وطمع في هذه الأمور وما أشبه ذلك هو بحاجة إلى هداية، فلا يمكن للعبد أن يستكمل هذه الأشياء، لكن لو فرضنا أن إنساناً قد استكملها من أولها إلى آخرها وحققها ظاهراً وباطناً، فعندئذٍ يقال: ما بقي عليه إلا شيء واحد وهو التثبيت.

"وقد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] إلى آخرها أن الله يقول: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل.

وقوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} [(٧) سورة الفاتحة] مفسر للصراط المستقيم، وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم".

عطف البيان والبدل حقيقتهما واحدة، لكن عطف البيان أوضح، أي إذا كان الثاني أوضح من الأول فهذا هو عطف البيان، وهذا في بدل الكل من الكل، ففي قوله تعالى: {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} وقوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ

عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} يتضح أن الثاني أوضح؛ لأنه مقيد مفسر مبين لا يلتبس، وهكذا فمثل هذا يكون عطف بيان، وأما إذا كان دونه في الوضوح، أو مساوياً له فإنه يقال فيه: إنه بدل، فلو قلت مثلاً: جاء عبد الرحمن بن صخر أبو هريرة، يكون أبو هريرة عطف بيان لأنه أوضح، لكن إذا قلت: جاء أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر، فإن عبد الرحمن يكون بدلاً لا عطف بيان؛ لأنه ليس أوضح من الأول.

"**والذين أنعم الله عليهم المذكورون في سورة النساء، حيث قال تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا* ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا} [(٦٩-٧٠) سورة النساء].**

وقوله تعالى: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} المعنى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله، وامتثال أوامره، وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق.

وأكد الكلام بـــ "لا" ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى ليجتنب كل واحدٍ منهما، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الحق ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه".

قوله: "**وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه**" لمّا عرف النصارى أن الذي جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الحق تركوه، فصاروا من أهل الغضب إضافةً إلى ما عندهم من ألوان الضلال.

"**لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال تعالى عنهم: {مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ} [(٦٠) سورة المائدة]، وأخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال تعالى عنهم: {قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} [(٧٧) سورة المائدة] وبهذا جاءت الأحاديث والآثار وذلك واضح بيِّن.**

روى الإمام أحمد عن عدي بن حاتم -رضي الله تعالى عنه- قال: "جاءت خيل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخذوا عمتي وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صُفُّوا له، فقالت: يا رسول الله، نأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمُنَّ عليَّ منَّ الله عليك، قال: ((من وافدك؟)) قالت: عدي بن حاتم، قال: ((الذي فر من الله ورسوله))، قالت: فمُنَّ عليَّ، فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه عليٌّ قال: سليه حملاناً، فسألته فأمر لها، قال: فأتتني فقالت: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها...".

قوله: "**قال: فأتتني**" أي عدي يقول: فأتتني يعني أختي.

قوله: "**فقالت: لقد فعل**" يعني النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قولها: "**فعلة**" يعني من الجود والكرم والإحسان.

قولها: "**ما كان أبوك يفعلها**" يعني حاتماً.

وفي بعض الكتب "**لقد فعلت فعلة**"، فتكون محمولة على أن عديًّا فرَّ؛ لأنه ذهب إلى منتهى بلاد الإسلام كما جاء في بعض الروايات، فأخبرته بما وقع لها وقالت له: اقدم عليه، وذكرت أنه قدِم عليه فلان فأعطاه، وقدم فلان فأعطاه، وقدم فلان فأعطاه، فأطمعته بالقدوم على النبي -صلى الله عليه وسلم- في حال الرضا أو السخط، فجاء من غير جوار.

"**..لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيَّان، وذكر قربهم من النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال: ((يا عدي ما أفرك؟ أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ ما أفرك؟ أن يقال الله أكبر؟ فهل شيء أكبر من الله عز وجل؟)) قال: فأسلمت فرأيت وجهه استبشر، وقال: ((إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى))[3] وذكر الحديث ورواه الترمذي وقال: حسن غريب**".

هذا حسنه أيضاً بعض أهل العلم مثل الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، والجملة الأخيرة منه: ((إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى)) يوجد ما يشهد لها، وهو الحديث الثابت عن بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- عنه -صلى الله عليه وسلم- أن المغضوب عليهم هم اليهود، وأن الضالين هم النصارى[٤].

"**وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، فقال: أنا من غضب الله أفر، وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله، فقال: لا أستطيعه، فاستمر على فطرته وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية؛ لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه الله بنبيه لما بعثه، آمن بما وجد من الوحي رضي الله عنه**".

أصل هذه الرواية في البخاري، وهي أنه لقي حبراً من أحبار اليهود فسأله عن دينه، وأخبره أنه يرغب في الدخول في دينهم، فقال له هذا الكلام.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

---

[3] - أخرجه أحمد (١٩٤٠٠) (ج ٤ / ص ٣٧٨) وقال شعيب الأرنؤوط: بعضه صحيح وفي هذا الإسناد عباد بن حبيش لم يرو عنه غير سماك بن حرب ولم يوثقه غير ابن حبان.

[4] - أخرجه ابن حبان (٧٢٠٦) (ج ١٦ / ص ١٨٣) والطبراني في الأوسط (٣٨١٣) (ج ٤ / ص ١٣٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٦٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الفاتحة (٩)

آخر سورة الفاتحة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "اشتملت هذه السورة الكريمة -وهي سبع آيات- على حمد الله وتمجيده، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية -تبارك وتعالى-، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة المفضي بهم إلى جنات النعيم، في جوار النبيين والصديقين والشهداء الصالحين، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل؛ لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه المعاني التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مما اشتملت عليه سورة الفاتحة هي المعاني الظاهرة المتبادرة، وإلا فإن هذه السورة لو أردنا أن نستخرج منها المعاني التي دلت عليها بطرق الاستنباط المختلفة، وتوظيف ألوان الدلالة، فإن هذا أمرٌ سيطول، ومعلومٌ أن من أهل العلم من يستخرج من البسملة بمجردها ما يقرب من ثلاثين وجهاً من القضايا المتعلقة بالتوحيد، وبعضهم يزيد على هذا، وأما الفاتحة فحدّث ولا حرج، وتجد أن الموضوع الواحد يستخرج له من ألوان الدلالات من سورة الفاتحة ما يثبته، إما بطريق اللزوم، وإما بطريق التضمن أو غير ذلك.

فمثلاً يمكن أن يستخرج من سورة الفاتحة موضوع الإيمان باليوم الآخر وذلك من قوله تعالى: **{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}** [(٣) سورة الفاتحة]، ووجه ذلك أن رحمته -تبارك وتعالى- بخلقه تقتضي أن يثيب المحسن بإحسانه، وألا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنه -سبحانه وتعالى- لا يترك الظالم يأخذ حق المظلوم ويفوت ذلك من غير اقتصاصٍ له، فكثير من الناس -كما نرى- يكون ظالماً في الدنيا بأخذ حقوق الناس وبقتلهم وما أشبه ذلك، ثم يموت ولم يلق جزاءه بعد.

وإذا بدأت بالحمد، فإن "أل" هذه تدل على الاستغراق، فالذي يوصف بالحمد المطلق من كل وجه يقتضي ثبوت ما يحمد عليه، ومن ذلك أنه يقيم داراً للناس يقيم فيها العدل التام، ويعطي كل ذي حقٍ حقه، ويجزي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، كما قال الله -عز وجل-: **{وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [(٧٥) سورة الزمر]، أي في الآخرة.

وقل مثل ذلك في قوله: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٢) سورة الفاتحة] فإن ربوبيته -سبحانه وتعالى- أيضاً تقتضي إثبات اليوم الآخر، وكذلك الأمر صريح في قوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] فإنه يدل على ذلك بدلالة المطابقة.

ثم في قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة] فإنه إنما يعبد من أجل تحصيل رضاه، والظفر بدار النعيم في الآخرة.

وفي قوله: {وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] أي نطلب العون على كل مطلوب دنيوي أو أخروي، ثم {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة] يدل على ذلك أيضاً، فإنه صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وهكذا.

وإذا أردت أن تثبت قضية الإيمان بالرسل فإن ذلك يظهر من قوله: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [(٣) سورة الفاتحة]، ومن الحمد؛ فإن حمده يقتضي ألا يترك عباده هملاً لا يأمرهم، وكذلك من الربوبية، فإن ربوبيته تقتضي أن يكون في مملكته أمرٌ ونهي، وهذا هو الذي يأتي به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

وتثبت قضية الإيمان بالرسل أيضاً من قوله -تبارك وتعالى-: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] فإن ثبوت اليوم الآخر يقتضي أن يكون ثمة ما تقوم به الحجة على الناس، وذلك بإرسال الرسل وإلا فكيف يعذبون ويحاسبون، والله يقول: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء]، وكذلك في قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [(٥) سورة الفاتحة]، فالله لا يُعبد إلا بما شرع، فكيف يعبد من غير بعث الرسل؟.

وكذلك في قوله: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} [(٦-٧) سورة الفاتحة] فالذين أنعم عليهم هم من ذكرهم بقوله سبحانه: {مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ} [(٦٩) سورة النساء]، وكيف حصل الإنعام والغضب أصلاً بغير بعث الرسل؟، فهم فرقٌ بين الناس.

فهذا مثال على دلالتها على هذه القضايا، فإذا أردت أن تنظر في المعاني التي يمكن أن تستخرج منها في دلالتها على أنواع التوحيد الثلاثة، ودلالتها على كثيرٍ من قضايا الاعتقاد وجدت من ذلك أموراً كثيرة جداً.

ما عليك إلا أن تبدأ من "أل" في قوله: {الْحَمْدُ للّهِ} تجد أن الحمد بدخول "أل" دل على الاستغراق، أي كل المحامد منسوبة إلى الله -عز وجل-، وهذا يقتضي أنه كاملٌ من كل وجه؛ لأنه لا يمكن أن تنسب جميع المحامد إلا لمن كان محققاً للكمال، وإلا فإنه ينقص من حمده بحسب ما نقص من كماله، فالمحمود من كل وجه هو الكامل من كل وجه، بذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهكذا لو أردنا أن نسترسل مع هذه المسائل لاحتاج ذلك إلى وقت كبير.

"وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ} [(٧) سورة الفاتحة] وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ}، وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم} الآية [(١٤) سورة المجادلة]".

هذه من اللطائف في هذا التفسير، بمعنى أنها ليست من المسائل الداخلة في المعنى الإجمالي، أو المعنى الأساسي للآية الذي جاءت لتقريره، لكنها من اللطائف والملح التي يذكرها بعض أهل العلم وينبهون عليها، وهم بين مكثرٍ ومقل في هذا، فإذا لم يظهر فيها وجه من التكلف فهي حسنة.

لذلك لو تُدوَّن هذه اللطائف والملح التي تذكر في تفسير سورة البقرة وفي التفسير عموماً مع قضايا التوحيد بجميع أنواعها، وكذلك القواعد التي تمر في التفسير، وما يتعلق بتطبيق أصول التفسير وقواعد التفسير، مثل: حمل اللفظ على أعم معانيه، وكذلك قضايا التضمن، وحمل اللفظ على الحقيقة والمجاز عند القائل به، وحمل المشترك على معنييه، وتدون أيضاً الإسرائيليات والموقف منها حيث إن التفسير مليء بالإسرائيليات، كما أن في التفسير كثيراً من القضايا الأصولية يحتاج طالب العلم أن يدونها ليستفيد منها، إذ لو دون كل هذه الفوائد والقواعد فإنه سيخرج بأمثلة بالعشرات بل ربما بالمئات، وعلى قدر تفتّق ذهن الإنسان وإلمامه واهتماماته بهذه الأشياء والتفطن لها، على قدر ما يكون عنده من الفوائد، ويكون عنده ثروة ممتازة.

"وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذي أضلهم بقدره كما قال تعالى: {مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا} [(١٧) سورة الكهف]".

يريد أن يقول: إن هذا من الأدب في التعبير حيث إنه يرِد في بعض المواضع في القرآن ما قد يكون الكمال في عدم نسبته إلى فاعله مباشرةً فيعبر عنه بالمبني للمجهول مثلاً ونحو ذلك، ففي قوله على سبيل المثال: **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}** [(٧) سورة الفاتحة] أضاف الله الإنعام إليه سبحانه بطريق الخطاب، ولما ذكر الغضب وإن كان الغضب صفة كمال في موضعها ولا شك لكنه ليس كالإنعام، لذلك قال: **{غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ}** [(٧) سورة الفاتحة]، ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم.

وبعض أهل العلم يقول: إن هذا التعبير استعمل لتهميشهم وإهمالهم فلأنهم لا يستحقون التنويه قال: **{غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ}** والله أعلم.

ومن أمثلة هذا الأسلوب قول الله -عز وجل-: **{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}** [(٨٠) سورة الشعراء]، فهو لم يضف المرض إلى الله بحيث يقول: والذي هو يمرضني ويشفين كما في قوله: **{وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ}** [(٧٩) سورة الشعراء] وإنما قال: **{وَإِذَا مَرِضْتُ}** فأضاف المرض إلى نفسه مع أن المرض إنما هو من الله -عز وجل-.

ومن أمثلة ذلك قول الله -عز وجل- في سورة الكهف عن الخضر: **{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا}** [(٧٩) سورة الكهف]، فالخضر نسب العيب إلى نفسه، وأما في الجدار فقال: **{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا}** [(٨٢) سورة الكهف] فلم يقل: فأردت أن يبلغا وإنما نسب ذلك الفضل إلى الله فقال: **{فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}** [(٨٢) سورة الكهف].

فهذا يذكره بعض أهل العلم، ويقولون هو من باب التأدب، ومما يذكرون في ذلك خطاب الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: **{وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}** [(١-٣) سورة

الضحى]، قالوا: لم يوجه الخطاب إليه مباشرةً بقول: قلاك مع أن الأصل هكذا وإنما قال: **{وَمَا قَلَى}**، وبعضهم يقول: هذا الأسلوب أتي به مراعاةً للفاصلة.

وعلى كل حال فالمقصود هو التنبيه على المعنى الذي ذكره ابن كثير أيًّا كان، ولذلك فإن مثل هذه اللطائف لا يُقطع بها، وإنما هي ملح يرِد على بعضها ما يرِد من الاعتراضات، فما ذكر في قوله تعالى: **{غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}** [(٧) سورة الفاتحة] يرِد عليه أن هناك مواضع أخرى أضاف الله -عز وجل- فيها لنفسه أنه أضل أقواماً، وغضب على أقوام، كقوله تعالى: **{مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ}** [(٦٠) سورة المائدة]، وكقوله: **{وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ}** [(٦) سورة الفتح] وكذلك قوله -تبارك وتعالى-: **{مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ}** [(١٨٦) سورة الأعراف] وغير ذلك كثير.

فلا ينبغي للإنسان أن يتمسك بشيء من ذلك ويعضَّ عليه بالنواجذ ويصارع عليه، فهي ملح تحتمل الصواب وعدمه، والإمام الشاطبي ما يرى ذكرها أصلاً ولا الاشتغال بها.

وابن القيم -رحمه الله- حينما تكلم على أدب المرأة المسلمة ذكر في قوله تعالى: **{وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ}** [(٢٩) سورة الذاريات] أن امرأة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لما بشرتها الملائكة، قالت كلمتين تكفي كل واحدة للدلالة على تعذر الولد وهما كبر السن والعقم، ثم قال: أدب المرأة المسلمة ألا تسترسل في الحديث مع الرجال الأجانب بغير حاجة، وهذا الكلام من ابن القيم معناه صحيح، والاستدلال بهذه الآية استدلال جميل لكن يرِد عليه أنها في الموضع الآخر قالت: **{يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}** [(٧٢) سورة هود]، فهنا تبين أنها لم تقل كلمتين، فالمقصود أنك إذا قرأت شيئاً وأعجبك فلا تظن أن مثل هذه الأشياء يقطع بها وأنها الحق الذي لا محيد عنه، وهكذا

ودع عنك قول: لو قال قائل كذا لكان ذلك له وجه، والذي أظنه أرجح في هذه المسألة كذا، فطالب العلم ما يصلح في مثل هذه المسائل أن يقول هذا أو يقول: والحق الذي لا مرية فيه، والصواب المقطوع به في هذه المسألة كذا وما عداه مطَّرح، وفلان أبعد النجعة، واعلم أنك قد تقتنع بشيء ثم تغير رأيك بعد فترة مع أنك قد جادلت وخاصمت على الرأي الأول وظننت أنه لا تردد ولا إشكال فيه، لذلك اترك هذه العبارات لأهلها وانظر إلى ما ينفعك في دينك ودنياك.

"وقال: {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [(١٨٦) سورة الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلون، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد في الحديث الصحيح: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم))"[1].

يعني أن هؤلاء يتبعون ما تشابه من القرآن، والمقصود به هنا في مثل هذا المثال، التشابه النسبي وليس التشابه المطلق من كل وجه الذي لا يعلمه إلا الله -عز وجل- وهو حقائق الأمور الغيبية، وإنما التشابه

---

[1] - سيأتي تخريجه ص ٦.

النسبي هو الذي يخفى على البعض ويعلمه البعض، فطوائف القدرية مثلاً يأخذون ببعض النصوص التي تدل على أن الله -عز وجل- قدر الأقدار، وأنه يصرف خلقه كيف يشاء، وأنه يهديهم وأنه يضلهم، فهم يأخذون هذه النصوص ويقولون: الإنسان ليس له حيلة، فالله -عز وجل- هو الذي يهديه أو يضله، فهو كالريشة في مهب الريح.

وتأتي طائفة أخرى ويأخذون من النصوص ما يدل على إثبات فعل العبد، وأن العبد له قدرة وإرادة وما أشبه ذلك، ويتركون النصوص الأخرى ويقولون: إن العبد يستقل بفعله، وإن الرب -تبارك وتعالى- ليس له قدرة على أفعال العباد، فهو أراد هدايتهم فضلوا بإرادتهم واختيارهم ومشيئتهم، فهؤلاء يأخذون جزءًا من النصوص، وهؤلاء يأخذون جزءًا من النصوص، فهذه طريقة أهل البدع، وهي طريقة تكون سبباً للانحراف في أي باب سلكت وليس فقط في باب القدر؛ لأن أي قضية تريد أن تسلك فيها هذا الطريق ستخطئ، فمثلاً: إذا أردت أن تتعامل مع أهل البدع بالنظر إلى النصوص المبثوثة في الكتاب والسنة وأقوال السلف، وأخذت الطريقة التي ليس فيها إلا المفاصلة والمصارمة والهجر وما أشبه ذلك فإنك ستخرج بنتيجة غير صحيحة، وإذا نظرت إلى النصوص الأخرى ستجد أن التعامل الشرعي يختلف عن هذا، وكذلك العكس بالعكس، فمن نظر إلى الجانب الآخر ربما يحصل له مباسطة وانفتاح كامل، ويرى أن هؤلاء منه وهو منهم، وأنه ينبغي أن تذوب هذه الجبال من الجليد التي بينه وبينهم، وأننا نستطيع أن نندمج وأن ننصهر.. الخ، ومن هنا تأتي خطورة البرمجة العصبية حيث تجد هؤلاء المبرمجين ما عندهم مشكلة في أن يندمجوا مع كل أحد ولو كان يهودياً أو نصرانياً؛ لأنه ينظر إلى الجوانب الإيجابية كما يقال: ينظر إلى نصف الكأس المليان، ولا ينظر إلى الجانب الآخر السلبي، وإنما ينظر من زاوية أن اليهود فيهم جوانب تتفق معهم فيها، والنصراني كذلك تستطيع أن تقترب منه ويقترب منك، وأن تفهمه ويفهمك، وأن يحل الحوار بدلاً من المصادمة والمفاصلة، والمفارقة، فينتهي موضوع الولاء والبراء؛ لأنه مبني على الإقصاء، ورفض الآخر، والانكفاء على الذات، والتقوقع والتمحور... الخ، وأعتذر عن هذه الكلمات التي ابتلينا بها وفي المقابل تركت الألفاظ الشرعية، فالمقصود أنه صار بعض طلاب العلم يسلك هذا الطريق وبالتالي كم جنت هذه الأمور على دين الله -عز وجل- وعلى أصحابها قبل كل شيء.

فالمقصود أن من نظر إلى النصوص من جهة واحدة فإنه يسلك طريقاً معوجة، وهذا الأمر له تعلق بثلاثة أشياء، له تعلق بالعلم، وله تعلق بالقصد، وله تعلقٌ ثالث بالعقل، فتجد أن أمثال هؤلاء يكونون من ذوي العلم الناقص بحيث لم يسمعوا إلا نصين أو ثلاثة ويظنون أن هذه النصوص هي كل شيء في المسألة وانتهى الأمر، والعلامة عند هؤلاء الجهال أنك تجدهم دائماً يعبرون بعبارات قوية جداً ويفاصلون ويصرحون بأنهم مستعدون لكذا وكذا.... الخ.

ومن الأمور المؤدية إلى ذلك: القصد، أعني قصد الإنسان هو الذي يجعل من هذا الإنسان يسير في مثل هذه الطريق، فتجد عنده هوىً يجعله يميل مع الشيء الذي يعجبه.

والأمر الثالث العقل أي عقل الإنسان وتركيبه، وأقصد بالعقل القلب، فطريقة تفكير الإنسان تؤثر تأثيراً واضحاً بيناً في مثل هذه الأمور، فتجده إذا نظر لا يستطيع أن ينظر بنظرة واسعة شاملة، وإنما ينظر بنظرة مبتسرة، فهذه الأمور الثلاثة هي أكثر ما يؤثر في سلوك الإنسان واعوجاجه.

وهناك أمور أخرى ثانوية، لكن هذه الأشياء التي ذكرتها هي في ظني أنها أساسية، وتجعل الناس ينحرفون وخاصةً في أوقات الفتن كهذه الأيام التي نعيش فيها الآن..

"وقد ورد في الحديث الصحيح: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم))[2] يعني في قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ} [(٧) سورة آل عمران]، فليس بحمد الله لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرِّقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله {تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [(٤٢) سورة فصلت]".

يلاحظ أنه يقول: ليس فيه حجة صحيحة، وأما ما يتعلقون به من القرآن فكل طائفة تقريباً تتعلق بأشياء من القرآن، والقرآن كما جاء في الأثر عن علي –رضي الله عنه– في وصيته لابن عباس: "حمَّالٌ ذو وجوه" أي أنه يحتمل معانيَ كثيرة، ولهذا أوصاه أن يجادل الخوارج بالسنة، وكذلك ثبت هذا عن أنس –رضي الله عنه– لما مر بابنٍ له يتجادل مع رجلٍ من أهل الأهواء، فأمره أن يجادله بالسنة.

وكذلك ورد هذا عن جماعة مثل عمر –رضي الله عنه– وغير عمر، وعلى كل حال كان السلف يرون مجادلة أهل الأهواء بالسنة مع مجادلتهم لهم بالقرآن؛ لأن الاقتصار في المجادلة على ما في القرآن من الآيات قد لا يجدي مع المخالف؛ لأن الآية تحتمل أكثر من وجه، فإذا بينتْها السنة انتفى الاحتمال.

لكن المشكلة إذا كان هذا المجادل ممن ينفي السنة ولا يؤمن بها بحيث إذا جئت له بالأحاديث قال لك: هؤلاء الصحابة أصلاً ارتدوا على أدبارهم، ونحن لا نصدق أحاديثهم ولا نقبلها، ويأتيك بأشياء مكذوبة عن أئمته، ويرى أن هؤلاء لهم العصمة، ثم بعد ذلك يستخرج هذه العقيدة من رأسه؛ لأنه قد ألغى السنة، والقرآن عنده يحتمل أكثر من وجه فهو يحمله على المعنى الذي يظنه، وهكذا نجد أن الشيطان قد عرف كيف الطريق إلى عقول كثير من الناس، والله المستعان.

أحياناً يفكر الإنسان ويقول: كيف يضلون وعندهم الكتاب والسنة؟! لكن إذا نظر نظرة تأمل وجد أن الشيطان قد وضع متاريس بينهم وبين الكتاب والسنة، لذلك إذا جئت إلى الرافضي تجد أنك لا يمكن أن تصل معه إلى نتيجة بطريق الكتاب والسنة؛ لأن السنة هذه كلها مرفوضة عنده، والقرآن عنده فيه آيات زائدة يرى أنها حذفت، ويفسر الآيات بتفسيرات عجيبة، ففي قوله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً}** [(٦٧) سورة البقرة] يقول: البقرة هي عائشة، والجبت والطاغوت في قوله تعالى: **{يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}** [(٥١) سورة النساء] يقولون: هما أبو بكر وعمر، فتقول له: ليس الأمر كذلك، فيقول لك: ليس تفسيرك أولى من تفسيري، وهذا في أقل الأحوال أنه يكون ممن درس البرمجة اللغوية، فهو يتنزل معك لمجادلتك على هذا الأساس.

---

[2] – أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٣) (ج ٤ / ص ١٦٥٥) ومسلم في كتاب العلم – باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن (٢٦٦٥) (ج ٤ / ص ٢٠٥٣).

وإذا جئت للصوفي قال لك: يا أخي أنتم تأخذون علومكم من ميت عن ميت فتقولون: حدثنا فلان حدثنا فلان حدثنا فلان، أما نحن فقد حدثنا الحي الذي لا يموت، وأتى لك بتأويلات فاسدة ما أنزل الله بها من سلطان.

إذا جئت لمتكلم من المتكلمين فقلت له: كيف تؤمن بهذه العقائد الكلامية الفاسدة؟ قال لك: يا أخي هذا النص الذي أنت تتكلم عنه من الكتاب والسنة إن كان غير متواتر فلا يحتج به في العقائد، وإن كان متواتراً فيرد عليه قوادح عشرة في الدلالة بحيث تجعله محتملاً، وهذه قضايا تحتاج إلى قطع لا تقبل الاحتمال، فتقول له: فما الحل؟ يقول لك: الحل هو العقل؛ لأن هذا الأمر ينبغي أن يكون في القواطع من الأمور، فالعقائد لا تحتمل التشكيك، وهكذا يلغي الكتاب والسنة، ويدخل في متاهات العقول التي يختلف أصحابها غاية الاختلاف.

ولذلك إذا رأيت عقائد أهل الكلام تجدها فلسفة وكأنك تقرأ لأرسطو أو أفلاطون، أو أمثال هؤلاء وما تقرأ كتاباً في العقيدة لأناس أنعم الله عليهم ببعثة خير نبي -عليه الصلاة والسلام-، وأنزل عليهم أشرف كتاب، إذا قرأت أي كتاب من كتب هؤلاء ما تجد قال الله كذا، أو قال رسول الله كذا، فالله المستعان.

"يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين، مثل: يس، ويقال: أمين بالقصر أيضاً، ومعناه: اللهم استجب.

والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [(٧) سورة الفاتحة] فقال: ((آمين))، مد بها صوته، ولأبي داود: رفع بها صوته[3]، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وروي عن علي وابن مسعود -رضي الله تعالى عنهما- وغيرهم.

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا تلا: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} قال: ((آمين)) حتى يسمع من يليه من الصف الأول"، رواه أبو داود وابن ماجه، وزاد فيه: فيرتج بها المسجد"، والدارقطني وقال: هذا إسناد حسن"[٤].

هذه الزيادة: "**فيرتج بها المسجد**" فيها ضعف، والطريقة التي مشى عليها المختصرون هو ألا يذكروا من هذه الأحاديث إلا ما بلغ درجة القبول، سواء كان حسناً لغيره أو نحو ذلك، فبعض أهل العلم يحسّن مثل هذه الرواية -يعني من باب الحسن لغيره- لكن على كل حال هذه الزيادة فيها ضعف لكن الأمر في هذا سهل، والمهم أن ثبوت التأمين لا شك فيه حيث توجد فيه أحاديث صحيحة.

"وعن بلال -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: يا رسول الله لا تسبقني بآمين، رواه أبو داود".

كل هذا وغيره يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يؤمن في الصلاة، أي: يقول آمين، ويجهر بذلك، ويؤمن أهل المسجد ويرفعون أصواتهم، وهي سنة ليست بواجبة في الصلاة، كما أن التأمين ليس من الفاتحة بالإجماع، أي أنه لم يوجد أحد قال: إنه من الفاتحة، ومعنى آمين أي اللهم استجب.

---

[3] - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب التأمين وراء الإمام (٩٣٣) (ج ١ / ص ٣٥١) والترمذي في أبواب الصلاة - باب ما جاء في التأمين (٢٤٨) (ج ٢ / ص ٢٧) وأحمد (١٨٨٦٢) (ج ٤ / ص ٣١٥).

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب التأمين وراء الإمام (٩٣٥) (ج ١ / ص ٣٥٢) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب الجهر بآمين (٨٥٣) (ج ١ / ص ٢٧٨) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (٩٣٤).

"ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددا الميم من آمين، مثل: {آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} [(٢) سورة المائدة]".

والمعنى قاصدين، لكن هذا معنى بعيد جداً، ولا ينبغي للإنسان أن يقول في صلاته: آمّين، وإنما يقول: آمين بمعنى اللهم استجب.

"قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة".

قوله: "**ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة**" هذا يرجع إلى التأمين، أي أنه يستحب أن يقول: آمين، وليس المقصود أنه يرجع إلى قول الحسن وجعفر من أنه يقول: آمِّين بالتشديد.

قال الشافعية: إن التأمين يكون في الصلاة وفي خارج الصلاة، فأنت إذا قرأت الفاتحة خارج الصلاة تقول: آمين، وقالوا: إن قرأ جهراً جهر، وإن قرأ سراً أسر، فهذا هو المقصود، وليس المقصود أنهم يقولون بتشديد الميم من آمين.

"قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً وفي جميع الأحوال؛ لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا أمَّن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه))[٥]، ولمسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه))[٦]، قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل في الإجابة، وقيل في صفة الإخلاص".

هذه المحامل الثلاثة الأقرب منها والموافق للسياق والذي تدل عليه الروايات الأخرى بشكل أصرح من هذا هو الزمان، بمعنى أنه يقع تأمين هذا الإنسان المصلي موافقاً لتأمين الملائكة في وقتٍ واحد أو في لحظةٍ واحدة، فإذا حصل هذا التوافق حصل الجزاء بالمغفرة.

ومن الروايات التي ذكرها ابن كثير -رحمه الله- في هذا قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((من وافق تأمينه تأمين الملائكة))[٧] لكن قد يقال: هذه محتملة إلى حد كبير، وذكر أوضح من هذه الرواية وهي قوله: ((فوافقت إحداهما الأخرى))[٨].

---

[5] – أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة – باب جهر الإمام بالتأمين (٧٤٧) (ج ١ / ص ٢٧٠) ومسلم في كتاب الصلاة – باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

6 – أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة – باب فضل التأمين (٧٤٨) (ج ١ / ص ٢٧١) ومسلم في كتاب الصلاة – باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

[7] – أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة – باب جهر الإمام بالتأمين (٧٤٧) (ج ١ / ص ٢٧٠) ومسلم في كتاب الصلاة – باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

[8] – أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة – باب فضل التأمين (٧٤٨) (ج ١ / ص ٢٧١) ومسلم في كتاب الصلاة – باب التسميع والتحميد والتأمين (٤١٠) (ج ١ / ص ٣٠٧).

وتوجد عندنا روايات أخرى منها حديث أبي هريرة في رواية له: ((إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا: آمين، فإن الملائكة يقولون: آمين، وإن الإمام يقول: آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له)) فهذا يدل على أن الموافقة تكون بالقول؛ ليقع ذلك متوافقاً.

وفي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- الطويل: ((إنما جعل الإمام ليؤتم به))[٩] وفي آخره زيادة: ((وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين، فإذا وافق كلام الملائكة غفر لمن في المسجد))[١٠]، وهذه رواية صحيحة تدل على أن المقصود الموافقة بالقول، والله أعلم.

"وفي صحيح مسلم عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً: ((إذا قال -يعني الإمام- ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله))[١١]، وقال الترمذي: معناه لا تخيب رجاءنا".

يلاحظ أن قوله: ((يجبكم الله)) يدل على أنها دعاء، بمعنى اللهم استجب، لا قاصدين آمّين.

"وقال الأكثرون: معناه اللهم استجب لنا".

مسألة:

فهم بعض الفقهاء أن ابتداء تأمين الإمام يكون سابقاً لتأمين المأموم بقليل بحيث يكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام، لا أن ينتظر المأموم حتى يفرغ الإمام من التأمين فهذا لا يقول به أحد فيما أعلم، وليس هذا الذي فهمه من أهل العلم بقاطعٍ.

مسألة أخرى:

بالنسبة لموافقة تأمين الإنسان تأمين الملائكة معناه أنه إذا قال الإمام: آمين بعد الفراغ من الفاتحة، فإنه ومن معه يرجو أن تحصل له موافقة الملائكة في التأمين؛ لأن الملائكة تقول: آمين بعد أن يقول الإمام ولا الضالين، فالإنسان يقولها ويرجو أن يحصل له ذلك، لكنه لا يستطيع أن يعلم أو يقطع أنه وافق أو لم يوافق.

تفسير سورة البقرة

"في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان))[١٢] وقال الترمذي: حسن صحيح".

---

9 - أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة - باب إنما جعل الإمام ليؤتم به (٦٥٦) (ج ١ / ص ٢٤٤) ومسلم في كتاب الصلاة - باب ائتمام المأموم بالإمام (٤١٢) (ج ١ / ص ٣٠٩).

10 - أخرجه بهذه الزيادة ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٦) (ج ١ / ص ٢٧٦) وقال السندي: هذا الحديث صححه مسلم ولا عبرة بتضعيف من ضعفه، وقال عنه الشيخ الألباني: حسن صحيح.

11 - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب التشهد في الصلاة (٤٠٤) (ج ١ / ص ٣٠٣).

12 - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٨٠) (ج ١ / ص ٥٣٩)، والترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٧) (ج ٥ / ص ١٥٧)، وأحمد (٩٠٣٠) (ج ٢ /ص ٣٨٨)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (ج١ / ص ٨٦).

فقوله هنا: ((البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة)) قد يفهم من هذا القدر -بالبناء للمجهول- أن ذلك يحصل بمجرد القراءة، سواء كان عن طريق إنسان يقرأ في بيته أو عن طريق التسجيل فإن الشيطان يفر من هذا البيت، ولا شك أن القراءة تعبّدَ الله -عز وجل- الناس بها، فالأكمل والأفضل أن يقرأ الناس في بيوتهم سورة البقرة، ولكن إذا حصل ذلك بالتسجيل أيضاً فيقال: لا يمنع؛ فكثير من الناس خاصة الذين يعانون من أشياء في بيوتهم يقولون: قد لا نتفرغ كل يوم لقراءة سورة البقرة، فإذا وضع التسجيل فإنه يكون مؤثراً في طرد الشيطان، وأثر ذلك مشاهد.

قبل أيام اتصلت إحدى النساء تقول: يوجد في بيتهم فأر كبير، يخرج من دورة المياه ويجلس تحت سرير النوم، تقول: فوضعنا له السم فأكل منه ثم اختفى ولم نجد له أثراً، تقول: وهذه الساعة تغطت جدران غرفة النوم بذباب كثير كبير الحجم على قدر رءوس الأصابع ما رأيت مثله، ولا يوجد له مدخل أصلاً، ولا يوجد من قبل ذباب في بيتنا أصلاً لا صغير ولا كبير، ولسنا في مكان زريبة أو نحو ذلك.

فقلت لها: اجلسي الآن في نفس الغرفة، وافتحي النوافذ واقرئي سورة البقرة، فاتصلت عند العصر تقول: إن الذباب خرج بعد ما انتهيت من السورة.

ولا زلت أذكر شخصاً كان مغمى عليه أو شبه مغمي عليه حيث كان فيه مسٌّ، وكان يشغَّل شريطاً يقرأ سورة البقرة وكان هذا الشخص يبكي وهو نائم، ويتكلم بكلام مفاده أنه يرى الشيطان الذي يؤذيه ويصرعه، كان يراه يدور على البيت يحاول الدخول ولا يستطيع، وهو يقول لأصحابه: لا تغادروا المكان.

لقد كان الشيطان يحاول أن يدخل ويدور على السور، وكان الرجل يتكلم ويبكي وهو نائم ويحاول أن يمد يده يريد أن يمسك يد أحدهم، وكان يقول: لا تذهبوا عني انتظروني، وكان يسميهم بأسمائهم كل ذلك وهو مغيب عن عقله.

هذا شيء رأيته، وعلى كل حال عندنا الحديث، والحمد لله، ما يحتاج أن نرى شواهد تدل عليه.

"عن عبد الله يعني ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "إن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة"[١٣] ورواه النسائي في اليوم والليلة وأخرجه الحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه".

على كل حال مثل هذا لا يقال من جهة الرأي فله حكم الرفع، فهذه الأحاديث كلها في هذا المعنى وغير هذه الأحاديث.

بعض هذه الأحاديث مثل أثر ابن مسعود هذا فيه ضعف، وعدد من الأحاديث الواردة في هذا الباب فيها ضعف، لكن بعضها ينجبر بالشواهد فترتقي إلى مرتبة الحسن، وبعضها ربما يكون دون ذلك، والله أعلم.

"وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط"[١٤].

---

[13] – سنن النسائي الكبرى – كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٨٠٠) (ج ٦ /ص ٢٤٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (ج ٢/ ص ٨٦).

[14] – سنن الدارمي (٣٣٧٥) (ج ٢ / ص٥٣٩)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف.

وهذا أيضاً من الروايات التي فيها ضعف، لكن بعض أهل العلم يجعل هذا مع غيره من قبيل الحسن، يعني أنه يتقوى بغيره، ولذلك خرجوه في هذا الكتاب.

وعلى كل حال يبقى أن أساس المعنى أو القدر الثابت هو أن الشيطان لا يمكن أن يبقى في بيتٍ تقرأ فيه سورة البقرة.

"وروي أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها وآية الكرسي وآيتان بعدها وثلاث آيات من آخرها"[15]، وفي رواية: "لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق"[16].

وعن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام))[17] رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه، وابن مردويه".

وهذا الحديث أيضاً فيه ضعف في الإسناد، ولكن الجملة الأولى: **((إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة))** ورد فيها أيضاً روايات أخرى ضعيفة عن ابن مسعود وعن ثلاثة من الصحابة أو أربعة، وكلها لا يخلو من ضعف، ولكن بعض أهل العلم يرى أن هذه الجملة تتقوى بغيرها من الروايات، وهذه الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً، فيرون أن هذه الجملة: **((إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن البقرة))** ترتقي إلى مرتبة الحسن.

"وقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: "بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً فقال: ((ما معك يا فلان؟)) قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: ((أمعك سورة البقرة؟)) فقال: نعم، قال: ((فاذهب فأنت أميرهم)) فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعلموا القرآن فاقرءوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشوٍ مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وُكئ على مسك))[18] هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن، ثم رواه مرسلاً فالله أعلم.

---

15 - سنن الدارمي (٣٣٨٢) (ج ٢ / ص ٥٤١)، والطبراني في الكبير (٨٦٧٣) (ج ٩ / ص ١٣٧)، وقال حسين سليم أسد: رجاله ثقات غير أنــه منقطع، الشعبي لم يسمع من ابن مسعود.

16 - سنن الدارمي (٣٣٨٣) (ج ٢ / ص ٥٤١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده منقطع كسابقه.

17 - أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) (ج ٣ / ص ٥٩)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) (ج ٦ / ص ١٦٣) وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٤) (ج ١٣ / ص ٤٦٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ج٢ / ص ٨٧): حسن لغيره.

18 - أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن – باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٦) (ج ٥ / ص ١٥٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم (٥٤١).

معنى: **((جراب وُكئ على مسك))**: يعني رُبط فلا تظهر رائحته.

وعلى كل حال حتى هذه الرواية من الروايات التي يمكن أن يقال عنها: إنها لا تخلو من ضعف في أقل الأحوال، وبعض أهل العلم يحسنها، وهذا ما فعله هؤلاء المختصرون.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.